

الحب.. على الطريقة المصرية

الحب بهدلة .. الحب بلا°

«مثل شعبي»..

كلنا عشاق لمصر، ونحن نعشقها على الطريقة المصرية، والمصرى عندما يريد أن يقول لحبيبته إنه يحبها بلا حدود، يقول لها: أحبك موت، أو ينظر إليها بعيون والهة ويقول: عاوز أكلك أكل، ولهذا فإن مصر تموت فى أيدينا، لأننا نحبها موت ونأكلها أكلا، وسنظل نأكلها بالحب حتى لا تصير هناك مصر، ونتحول جميعا إلى لاجئين فى قوارب فى البحر المتوسط، كما هو الحال مع الفيتناميين. ومن الآن يتحول الكثيرون منا إلى رجال قوارب، لأنهم لا يجدون مترا مربعا من الأرض يعيشون فيه، والشقق تبني بالألوف، ولكنك لابد أن تدفع الألوف لكى تطأ عتبة شقة منها. والشئ الوحيد الذى تستطيع أن تفعله هو أن تصعد إلى الدور السابع فما فوق. ثم تقفز وتمضى إلى دار البقاء مجانا، ولا بد أن تحمد الله على أنك محظوظ، لأنك لم تودع الدنيا من غرفة مظلمة رهيبة فى منزل آيل للسقوط فى حارة شق التعبان فى الدرب الأحمر.

وعندما كان السادات بيننا كان الألوف يهتفون حتى تنشق حناجرهم: بالروح بالدم، نفديك يا سادات! والرجل المسكين قتل وحده ولم يفده أحد، لا بماله ولا يده، ودفن وحده لم يشيعه إلا الرسميون، وسيحشر وحده، ويصدق عليه قول رسول الله فى أبى ذر الغفارى: يرحم الله أبا ذر، يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث يوم القيامة وحده.

أما الذين كانوا يزلزلون الأرض بهتافهم للسادات، فقد ذهبوا يومها ووقفوا فى طوابير الجمعية أو ذهبوا بالسراكى فى أيديهم ليصرفوا معاش السادات دون أن يترحموا عليه، وهذا أيضاً حب. حب على طريقة بلدنا.

نشرت هذه المقالة فى ١٣ فبراير ١٩٨٣ م.

واليابانى يحب بلاده، ولكنه حب حياة. أقصى أمانية أن يموت فى سبيل اليابان. واليابان كلها بستان رائع، لأن أهلها يحبونها على الطريقة اليابانية، ويعبرون عن حبهم بالصدق والإخلاص، والعمل، والماكينه التى يعمل عليها قطعة من كيانه. بعد أن تنتهى ساعات العمل المقررة يهدى اليابانيون بلادهم ساعة عمل مجانا، ويقضون ساعة أخرى فى تنظيف الآلات والعنابر. العامل يرعى ماكينته كأنها بنته، ورئيس العنبر يمر على العمال ويرى ماكيناتهم وهى تلمع، وينظفون العنبر كله ثم يغلّقون الباب عليه كما يغلّق الوالد الباب على وليده النائم. وهذا حب. والأوسطى شعبان يكسر نوافذ العنبر ليتدفق إليه التراب، ويوقف الآلات ويصل إلى المصنع متأخرا ساعة، ويأكل ساندويتش الفول، ويمسح يديه فى الماكينه، ويدير الماكينه على الفوضى، ويقف ليتكلم مع إخوانه عن الحوافز، ويعمل ساعتين، ثم يسمع أذان صلاة الظهر فيدع الآلة دائرة ويسرع للوضوء، لأنه رجل تقى جدا لا يفوته فرض، وبعد الوضوء السابغ وغسل ما بين أصابع القدم، والصلاة، ينتهى يوم العمل، والماكينه التى صنعت لتنتج ٣٠٠ قطعة فى اليوم أنتجت عشرا «يا دويك» وعاوزين حوافز، والحوافز توزع من مال المصنع الغارق فى الخسائر والديون، وتقرير مجلس الإدارة الذى تنشره الصحف يقول إن الشركة تكسب، ولهذا فهو - وزملاؤه - يستحقون الحوافز.

ومطلوب منك أيها المواطن السعيد أن تصدق ذلك، وأن تقرأ أخبار الملايين التى تضيع، وأنت وأولادك تتعشون بثمن جبنة رومى على أنعام التليفزيون، وفى التليفزيون رجل أنيق يردد عبارة فولتير الخالدة فى رواية زديج أو صديق: والأحوال يا جلالة الملك تسير على أحسن ما يرام فى أسعد بلاد الله. وفولتير كتب قصة زديج، ثم هرب إلى بافاريا، لأنهم اعتبروه فى فرنسا مجرما. أما صاحبنا الذى يحدثنا فى التليفزيون فلن يطارده أحد، وهو سينزل بسلامة الله ليجد السيارة الميرى تنتظره.

وسيشكره السيد الوزير فى اليوم التالى. سيشكره باسم مصر التى يحبونها جميعا حب موت، وحب أكل. وحب نهب.. وهذا كله حب على طريقة بلدنا، وفى الماضى كانت هناك عربات عليها كسب أسود بلون الأرض، وكان البائع يصيح حلاوة بلدنا! ومرة أردت أن أذوق حلاوة بلدنا، فاشتريت شيئا، ودارت بى الأرض، وقلت للرجل: هذه حلاوة بلدنا؟ قل زفت بلدنا، قل قطران بلدنا! ورأيت متسولا جالسا القرفصاء فأعطيته كل حلاوة بلدنا. والمسكين أكل الحلاوة كلها، وكنت أتوقع أن يموت، ولكنه ظل صحيحا سليما معافى، وتعجبت، وقلت: سن يدري، فربما كانت هذه حقا حلاوة بلدنا ولا أدري.



ولأننا نحب بلدنا، فنحن نأكل كل ما فيها حتى مال المساجد وهو مال الله ومال النبى. وكل الأراضى المحيطة بمساجدنا الكبرى أوقاف مساجد، ولكننا أكلناها كما أكل المتسول حلاوة بلدنا. وكل الأرض المحيطة بالمسجد الأزهر الشريف وقف أوقفه على المسجد مملوك يسمى عبد الرحمن تخدا، وكان يريد أن تحيط بالمسجد بساتين مثل مساجد استامبول، وفى تركيا يحبون الله على الطريقة التركية، فتركوا أرض الأوقاف بساتين إلى يومنا هذا.. أما نحن فنحب الله سبحانه حباً مصرياً، ولهذا فقد أكلنا مال الله وهو مال المسجد، وتاجرنا فيه، ومتر الأرض من مال الأزهر هذا يباع بالشىء الفلانى، وقل مثل ذلك فى أوقاف مساجد قايتباى وبرقوق وقلالون والسلطان الغورى والإمام الشافعى. كلها أكلناها بالهناء والشفاء، بل إننا احتلنا المساجد نفسها، وأذهب الآن إلى جامع قلالون تر العجب، فإن الناس لا يسكنون فى المسجد فقط، بل إن أحدهم أنشأ مصنعا حقيقيا ينتج أنابيب البوتاجاز، وهى تتميز عن غيرها بأنها تنفجر فيمن يشتريها، وعندما ناقشت هذا الرجل، قال:

- يعنى حضرتك عاوز تخرب بيتنا..

- إنه ليس بيتك، إنه بيت الله..

ويكل وقاحة قال:

- من إمتى؟ هذا المصنع ورثته عن أبى ا..

وضرب كفا بكف، وهو يقول:

- عاوز يخرب بيتنا، ويقول مال الله وبيت الله! أنت تبعد عنى أحسن لك، ونحن ناس نعرف ربنا..

ويرفع المؤذن الأذان لصلاة العصر، ويتركنى الرجل لكى يصلى العصر عند دخول الوقت كما تأمر السنة، وهذه طريقة بلدنا فى حب الله سبحانه..

والإمام الشافعى، عالم قریش الذى ملأ طباق الأرض علماً، له مسجد عظيم، والمسجد له وقف واسع يضمن له ميداناً جميلاً حوله، وأيام كنت صغيراً كنت أذهب للصلاة فى الجامع، وكانت الأرض حوله فضاء، أما اليوم فقد أكلناها وبنينا عليها بيوتاً، والبياعون احتلوا ما بقى من جدران المسجد وحولوه إلى دكاكين عليها لافتات بالنيون لايت، ويقال إن الذى وضع اليد على المسجد وما فيه وما حوله كان شيخاً من قدماء شيوخه الأتقياء، ولأنه كان يحب الإمام الشافعى حب موت فقد أكله بلحمه وعظمه ومسجده وأرضه، وبدأ هذا الشيخ عمليته بطريقة عملية، فقد أنشأ مكتبا على الرصيف ليكتب للناس ما يريدون إرساله من شكاوى ومطالب وعرضحالات إلى عالم قریش وفقه مصر محمد بن إدريس الشافعى. وكتابة الرسالة كانت بخمسة قروش، لأنها موجهة للإمام شخصياً، وتفتتح عادة بعبارة «حضرة المحترم صاحب الفضيلة الإمام الشافعى رضى الله عنه» أو «إلى صاحب الموكب العظيم الإمام الشافعى» أو «حضرة سيدى صاحب المقام الرفيع ومولاي الإمام الشافعى رضى الله عنه». وهذه الرسائل كانت تسلم بعد كتابتها إلى الشيخ لكى يوصلها إلى الإمام يدًا بيد. وكان الشيخ يلقي بها خلف سياج الضريح لكى يقرأها الإمام، ويحقق مطالب المظلومين والناس كانوا - وما زالوا - يكتبون الرسائل إلى الإمام الشافعى، لأنهم

كانوا يائسون من العدل من أهل الأرض. وقد كتب الدكتور سيد عويس دراسة ممتازة على هذه الرسائل، وشيخ الجامع كان يجمع هذه الرسائل إذا كثرت، ثم يقوم بإحراقها للطبخ عليها في بيته. ثم انتقل هذا الحق: حق إعدام الرسائل إلى إمام المسجد الذي تعينه وزارة الأوقاف. وقد صرح شيخ الجامع بذلك للدكتور عويس وقال: إن الرسائل تعدم اسبوعيا تحت إشرافى تحريا للأمانة طبعاً.

المهم أن شيخ الجامع القديم الذى كان يتقاضى خمسة قروش عن الرسالة، فيعطى الكاتب أو العرضالجى منها قرشاً ويأخذ الباقي، أتم دينه من مال الله والإمام الشافعى، وحج سبع حجرات، وتزوج وطلق تسع مرات ووضع يده على أوقاف الجامع، وبنى على بعضها الآخر، وهذا ليس كلام الدكتور عويس، بل كلام ناس كثيرين هناك سألتهم فى الموضوع عندما عملت استطلاعاً عن بريد الإمام الشافعى.

وقد اغتنى الشيخ من مال الله ومال الإمام القرشى، ومعظم الأرض مكتوبة إلى الآن باسمه، وبعضها سجل فى الشهر العقارى.. وإذا كان الشيخ لا يخاف الله فهو بالتالى لا يخاف من الإمام الشافعى وبعض الرسائل كانت موجهة ضده هو وأهل بيته، وقد بين الدكتور سيد عويس فى كتابة المتمع موضوعات الشكاوى ومن بينها: سرقات عينية - سرقات أموال - هجوم على منزل أو دكان - إتلاف مزروعات - سلب عقار - أخذ أموال يتامى - ضياع أموال - تسميم مواشى - هدم منازل - وكل هذه الجرائم ارتكبتها الشيخ المذكور وآله وبنوه.

وبعض هذه الرسائل كانت ترسل بالبريد المسجل، ولا أدرى كيف كان الإمام يتسلدها، ولكن مصر أم العجائب، كما يقولون ومن هذه العجائب أننا لا نستطيع استرداد أرض من سارقها، وفى يوم من الأيام لن نجد ضريح الإمام الشافعى كله. سنكون قد أكلناه وهضمناه على الطريقة المصرية.



وفي العشرة الأوائل من هذا القرن، كان في مصر مدير للصحة يسمى الدكتور إدوارد كيتنج، وقد كان ناظرًا لمدرسة الطب، ولم تكن هناك وزارة صحة، وإنما كانت مصلحة تابعة لوزارة الداخلية. والمستر كيتنج طاف بمساجد مصر، وتعجب من أحوالها، لأن الناس كانوا يستعملون دورات المياه فيها أسوأ استعمال، وكان أبى لا يحب الإنجليز، وكان يكره كيتنج بالتالي ولهذا فقد كان المدير الإنجليزي لا يدعه فى القاهرة طويلاً، كان ينقله دائماً إلى بلاد الحدود: السويس ودمياط وأسوان والواحات حتى كان والدى يقول: الظاهر أن مستر كيتنج فاكراً أننى تابع لسلاح الحدود.

ولكن المستر كيتنج لم يكن بالسوء الذى كان الناس يتصورونه عليه، ففي سنة ١٩١٩م، فيما أظن، اصدر قراراً بإغلاق المساجد فى كل مدينة أو حتى لمدة شهر، لكى يصلح دورات المياه، وكنا أيامها فى حى الجمالية، وكنت صبياً فى الثامنة، وأغلقوا مساجد الحى، وهدموا كل دورات المياه فيها، وأعادوا بناءها على أحسن صورة تيسرت لهم، وانتهزوا الفرصة، فبيضوا المساجد ورمموها وفرشوها بحصر جديدة، وقد أعطته المال اللازم لذلك أم المحسنين الأميرة أمينة أم الخديو توفيق، ولم يكتف الدكتور كيتنج بذلك بل وضع خطة مجار كاملة لمدينة القاهرة، وكان غرضه الأساسى من وراء ذلك العمل هو ألا تعود المساجد إلى حالتها الأولى بعد ذلك.

ومع ذلك فإن شيخاً يسمى عبد السميع السمالوطى. كتب مقالات فى الصحف، وقابل رئيس الوزراء لكى يطلب إليه عزل الدكتور كيتنج الذى اعتدى - فى زعمه - على حرمة الإسلام..

ولم يكن كيتنج فى حاجة إلى من يخرجه من الحكومة، فقد كان حقيقة إنساناً محترماً، فقد استقال من خدمة الحكومة، وافتتح عيادة فى إحدى قرى مديرية أسيوط، وظل يعالج الناس دون مقابل، حتى مات وكان لا ينفق شيئاً من راتبه الذى قدرته له أم المحسنين، وعندما مات وجدوا

وصية تركها يطالب فيها أن يبنيوا بهذا المال مسجداً، وإلى جانبه عيادة صغيرة لإسعاف الفقراء.

ويسمع والدى بالخبر، وكان الدكتور كيتنج قد نقله إلى دمياط قبل استقالته، وأنا أتذكر الآن وجهه، وقد علتة الدهشة، وهو يقول لصاحب له يسمى الدكتور عطوة: هل هذا معقول يا دكتور. إن الدكتور كيتنج يحب بلدنا أكثر من الشيخ السمالوطى الذى كان يريد أن تظل مساجدنا فى الحالة السيئة التى كانت عليها؟.

واسمع الدكتور عطوة يقول:

- معقول يا محمود، لأن الشيخ السمالوطى كان يحب مصر على طريقة أهل بلدنا، أما الدكتور كيتنج فكان يحبها على طريقة الخواجات. احنا يا محمود عندما نحسب إنسانا فإننا نخنقه بالحب، وسعد زغلول الله يرحمه - ضربوه بالرصاص لأنهم أحبوه، ولكن أحدا لم يضرب مصطفى فهمى ولا إسماعيل صدقى ولا أحمد زيور، لأننا كرهناهم، ويا ويل من نحبه!..



وهل أحب الناس فى بلدنا ولما كما أحبوا السيد أحمد البدوى.. ذلك الشيخ الشريف المبارك الذى منحه الله الإيمان والصدق والصبر، وجعله يختار بلادنا من دون بلاد الله، واستقر فى طنطا ليعلم الناس معانى التقى والورع والصلاح؟..

وأنا أحب السيد البدوى، لأنه من أعلام تاريخ بلادى، وإن كنت لا أقبل كرامة أو معجزة واحدة مما ينسبها الناس إليه، ومذهبي فى ذلك معروف، وهو أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكرم إنسانا بأكثر مما كرم به رسوله الكريم. ورسولنا ﷺ لم يمش على الماء، ولا انتقل من القاهرة إلى مكة ليصلى العصر ثم يعود ليصلى المغرب فى طنطا، وينام على سطح منزل الشيخ ركن الدين..

ولكن الذين نسبوا إلى السيد البدوي الكرامات هم الذين أحبوه على الطريقة المصرية، قد كان الشيخ شريفاً علوياً من آل الحسين رضى الله عنه، وقد ضرب للناس مثلاً فى الزهد والوقار والعفة تكفى هنا حكايته مع السيدة فاطمة بنت بربى التى أرادت إغراءه، فتأبى إلى الله على يديه، وأصبحت من الصالحات.

فإن أتباع السيد البدوي جعلوا قدرة السيد البدوي فوق قدرة الله سبحانه وتعالى، فإن الله يهدى الناس إلى الإيمان فيؤمنون، ولكن السيد البدوي يغضب على إنسان فيسلب الإيمان من قلبه فيصبح كافراً، ثم يستغفره الرجل ويبكى عند قدميه فيرد السيد البدوي إلى الرجل إيمانه فيعود مسلماً، وهذه الحكاية وأمثالها يحكيها جلال الدين عبد الرحمن السيوطي فى طبقات الصوفية الكبرى.

بل إن أتباع السيد البدوي الذين أحبوه «حب موت» جعلوا مولده مناسبة لممارسة أسوأ أشكال الرذيلة. وما أقول هذا من عندي، ولكنى أنقل لك سطوراً من كتاب ألفه الدكتور أحمد صبحي منصور وهو أستاذ بالجامعة الأزهرية يقول فى ص ٣٢٣ من كتابه عن «السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة»، وهو من أحسن ما قرأت عن ولى طنطا الكبير: لقد أصبح مولد البدوي، والموالد الأحمدية، أكبر بؤرة للفساد فى مصر الملوكية. ولم تمنع مكانة البدوي وخلفائه من الإنكار على ما يقع فى مولده من الإثم والفجور، ولم تكن السلطان الملوكية لتهتم: بما يحدث فى طنطا إلا بعد أن تولى السلطات جقمق (من سلاطين المماليك البرجية) سنة ٨٤٢٠ هجرية (١٤٣٨م) وقد وصفه ابو المجاسن (أى وصف السلطان واسمه الكامل الظاهر سيف الدين) بأنه كان شديداً على من يقع فى المنكرات، فكسدت فى عصره سوق أرباب الملاحى والمسكرات. وفى عصر جقمق تزعم الفقهاء العلامة برهان الدين البقاعى، وقام بدور فى إطلاع جقمق على ما يجرى فى مولد البدوي من انحلال خلقى شاع وذاع، وملأ الأسماع، فأصدر جقمق

أمراً بإبطال المولد الأحمدي سنة ٨٥١هـ. وبسبب هذا الحادث تجرأ المؤرخون فأثبتوا ما يقع في المولد من انحراف. فالسخاوي يقول: إن المولد الأحمدي كانت تتخذ فيه أماكن للفساد في تلك الأيام لكثرة الجموع، ثم اضطر الصوفية إلى الاعتراف بصحة هذا الكلام. يقول الحلبي عن المولد: وصار له يوم مشهود، ويقصده الناس من النواحي البعيدة. وشهرة هذا المولد في عصرنا هذا تغنى عن وصفه، وقد قام في الأمر جماعة من العلماء وممن يتدين، وطالبوا بإبطاله لأمر عرضت فيه، منها وجود النساء الخطايا (أى الخاطئات)، واختلاط بعض الفساق بهن، فلم يتهياً لهم إبطاله إلى سنة ٨٥١هـ وكان ذلك في زمن السلطان جقمق وكانوا قد أنهوا إليه أن في مولد سيدي أحمد البدوي تقع حرمان ومفاسد كثيرة بسبب اختلاط الرجال بالنساء. وقد عرض عبد الصمد لإبطال المولد، وقال إنه أبطل سنة ٨٥٢هـ. ولم يذكر السبب، ثم فصل القول في موقف من توقف في الإفتاء بإبطال المولد، كيحيى المناوي الذي قال: أما أنا فلا سبيل إلى أن أكتب على الفتيا بإبطاله أبداً، بل أفتى بمنع المحرمات التي تحضر فيه، ومولانا السلطان يرسل خاصكيا (أى مندوباً خاصاً) أو أميراً من جهته يمنع المحرمات التي تحضر في المولد، ويبقى المولد على حاله.

وأتابع معك كلام الدكتور أحمد صبحي منصور، في كلامه عن السيد البدوي ومولد السيد البدوي يقول: ويبدو أن الناس في هذا العصر قد أدمنت الانحراف في موسم المولد. فلما أبطل المولد في عام ٨٥١هـ أقاموا مولداً آخر قريباً من طنطا ليمارسوا فيه الإثم. يقول شمس الدين السخاوي: «عندما أبطل الظاهر جقمق مولد البدوي، عمل شخص يسمى رمضان، بناحية محل البرج بالقرب من المحلة الكبرى، المولد، ووقع فيه فساد كبير على العادة» وقد نافس مولد الانبأبي في إمبابة مولد البدوي في طنطا في مجال الانحلال الخلقي، ولأنه يقع على مشارف القاهرة فقد حظى باهتمام المؤرخين، خصوصاً مولد سنة ٧٩٠هـ وهي السنة التي توفي فيها

إسماعيل الانبأبى خلفة البدوى فى امبأبة. وبقول المقرزى عن هذا المولد:
«كان فىه من الفساد ما لا بوصف، ووجد فى المزارع ١٥٠ جرة خمرة
فارغة، سوى ما حكى عن الزنا واللواط» (السلوك ٥٧٦/٣)..

وهذا الفساد فى موالد الأولياء انتشر وساد، حتى أصبحت الموالد كلها
مواضع للفسق المشين، وموالد إبراهيم الدسوقى وإسماعيل الانبأبى حتى
مولد أبى الحجاج يوسف الأقمرى فى الأقصر وعبد الرحيم القنأبى فى قنا،
أصبحت مناسبات ترتكب فىها أخط أنواع الرذيلة.. وبلغ الأمر بهؤلاء
الناس الذين كانوا يحبون المشأبخ والأولياء «حب موت» أن أصبح الشىخ
نفسه عندهم وسبطا فى مسائل الجنس، وأقرأ هذه الحكاية الوقحة التى
يحكيها عبد الوهاب الشعرانى عن نفسه، وكان من أكبر المدافعين عن
المشأبخ والأولياء: «ولما دخلت بزوجتى فاطمة أم عبد الرحمن وهى بكر،
مكثت خمسة شهور لم أقرب منها، فجاءنى - أى البدوى - وأخذنى
وهى معى، وفرش لى فرشاً فوق ركن القببة (فى المسجد الأحمدى) على
يسار الداخل، وطبخ لى حلوى، ودعا الأحياء والأموات إليه، وقال: أزل
بكرتها هنا، فكان الأمر فى تلك الليلة.. (الطبقات الكبرى ١٦١/١).
ويقول الدكتور صببى معلقا على ذلك بقوله: واضح أن الشعرانى كأى
رجل يواجه هذه المشكلة خمسة شهور، قد جرب كل الوسائل ليثبت
رجولته أمام زوجته البكر، ثم كانت أنجح وسيلة «أن يتم «الفتح» عليه
فى قبة البدوى بسبب ما كان للقباب (وأضرحة الأولياء) من إحياء
جنسى، وتاريخ طويل فى تلاقى العشاق، ونجحت هذه الطريقة، فصاغها
الشعرانى كرامة للبدوى ودعاية لشخصه كتأبع أثير ومفضل لى قطب
الأقطاب أعظم أولياء مصر، فادعى أنه أخذ مع أم عبد الرحمن وجهز لها
فى قبته الفراش، وطبخ لهما حلوى، ودعا لمواقعة أم عبد الرحمن، وهنئنا
لك يا أم عبد الرحمن، فقد تم اللقاء بعد طول عناء فى قبة سيد الأولياء..
(السيد البدوى للدكتور صببى ص ٣٢٩)..

وهكذا بهدلنا السيدا البدوى لأننا أحببناه..

والشيخ عبد الوهاب الشعرانى وهو من أكبر أنصار البدوى، وكان يحبه
«حب موت»، جعله وسيطاً جنسياً يحل له مشكلته مع زوجته فاطمة أم
عبد الرحمن..

حب على الطريقة المصرية..

حب موت، حب أكل، حب بهدلة!..

الآن فقط فهمت المثل العامى المصرى: الحب بهدلة!..



وقد مر بنا الوقت سريعاً، وبقيت أهم صور الحب؟ أقصد الحب الذى
هو حب.. ولنا فيه أساليب «تجنن»..
وهذا وغيره حديث طويل «عايز قعدة»..

الغلب عليك.. هو المكتوب يا ولدى!

أبدأ هذه التقاسيم - أقصد الفصول - بتحية من القلب لأولئك الأعزة الذين عملوا - ويعملون - على تجديد شباب النغم والموسيقى فى بلادنا: محمد عبد الوهاب - صانع النغم الحديث فى تاريخنا الحضارى - أطال الله عمره وزاده فى صحته وعافيته، ود. حسين فوزى الذى فتح لنا الأبواب والنوافذ على عالم النغم الغربى الحافل بكل بديع رائع، وأدخلنا بصره وطول أناته وجهده فى عالم السيمفونيات والمتابعات والأوركسترا والكونشيرتو والكورال والسولو، ود. سميحة الخولى التى تواصل هذه الرسالة بأستاذيتها وأصالتها فى قاعات الأكاديمية وفى دروسها التى تلقىها علينا فى التلفاز، والأستاذة رتيبة الحفنى مغنية الأوبرا التى تبعث - بروحها وعلمها وفنها الحياة فى عصر ما قبل سيد درويش وما قبل عبد الوهاب.

وتعود بنا خلال دقائق قليلة كل أسبوع إلى عالم التخت واليشارف والأدوار والربيع تون ورمزى يسى عازف البيانو الموهوب الذى تعرفه أوروبا كلها، وبقية الذين يعملون على تربية آذاننا وصقل أذواقنا بما يقدمون لنا من نغم غربى جديد أو شرقى مصقول قديم متجدد ويعالجون بهذه الترياقات أسماعنا مما تعانیه صباح مساء من نشاز يضعنا فى أحيان كثيرة خارج نطاق النغم المنسجم أو ما يسمونه فى الألمانية *Verstimmung* وهم بذلك يعالجوننا بجرعات مضادة للأنغام الضارة *anti-vocalics* (على وزن *anti-biotics* وبعد هذه التحية الواجبة أقول: إن هذه تقاسيم أو تنويعات على صور وحقائق وواقعيات من حياتنا التى تزداد فقرًا وبرودة يومًا بعد يوم حتى ليشعر الإنسان منا أحيانًا أننا دخلنا منطقة الجليد الدائم فى

* نشرت هذه المقالة فى ٢٩ يولية ١٩٨٤ م.

أعقاب المستكشف روالد أموندسن الذى غاله الموت وهو فى الطريق إلى القطب الجنوبي..

وأعترف مقدماً أن العنوان العام لهذه التقاسيم مشتق من مصطلح موسيقى متداول بين أهل الفن جعله بعض الموسيقيين عنواناً لبعض ما صاغوا من مقطوعات:

variations sur un theme de chez nous

ولابد أن أضيف هنا أن الذى سيقراه القارئ هنا بعيد جداً عن الموسيقى أو التقاسيم (وأنا أفضل هذا المصطلح على مصطلح تنويعات)، إنما هى صور ومشاهد من حياتنا، وإذا كان لابد أن تكون لها علاقة بالموسيقى فأقرب ما يخطر على بالى منها هو الموسيقى الجنائزية، وفى أذنى تتردد الآن الأنغام الجزينة التى يختم بها تشايكوفسكى قطعته الشهيرة: موت البجعة، وتدرجات crescendos وتدرجات diminuendos ريتشارد فاغنر فى خواتيم اللوهنجرين أو الفانهوز..



وأبدأ التقاسيم..

فأقول إننى أصحو على العادة مع تياشير الصباح، وكنت فيما مضى وولى من أيام العافية أسارع بعد صلاة الفجر إلى المكتب لأبدأ يوم العمل، أما الآن - وللسن أحكام - فإننى أعود بعد الصلاة إلى الفراش وأستمع بمصر وهدوئها وجمالها قبل أن تصحو جيوش مواطنى الأعداء - حرسهم العناية الإلهية وحم فى طريقهم إلى الخمسين مليوناً، وصدقنى أيها القارئ أن جمال مصر لا يتجلى لك فى أبهى صورة إلا وأبناؤها نيام، والشوارع خالية والهدوء شامل، فإن كنت شاعراً أو مفكراً فهذه ساعتك، فإذا استأخرت أبارك الله! تبدأ الحرب والضرب والرقع والفرقعات! والجموع المستيقظة وبها نهم إلى الضوضاء يفوق نهمها إلى الطعام، والجماهير - التى لا عمل لها فى الحقيقة إلا صنع الأطفال فى الليل - تندفع فى حركة

تخريب هائلة منذ طلوع الصباح هدفها فى النهاية إحراق الأرض فى طريق الأطفال الذين يصنعونهم فى الليل.

وأحس كأن القيامة قامت من حولى لأن كل المواطنين الأعرزة يبدأون فى صناعة الضجيج بمجرد الخروج من السبات - والعائلة التى تقيم فوقنا تبدأ يومها بالتسابق إلى الحمام حيث يعسكر السيد رب البيت نصف ساعة أو ساعة يقرأ فيها الأهرام والأخبار والجمهورية فى انتظار جريدة المساء، وأولاده الأربعة يطرقون الباب ويتعجلون (سى بابا) بينما الأم العزيزة تضع على المائدة حلة من الفول وصفوفا من الخبز، ثم تجلس لتفمسح زورها - حتى تفرغ معركة الحمام - برغيفين عامرين محافظة على مقاييسها الجمالية أو الحيوية.

والأرقام القياسية العالمية للمرأة هى على الترتيب من أعلى إلى أسفل ٩٠ - ٦٥ - ٩٠ سنتيمترا ومقاييس صاحبتنا الآن على الترتيب ٢ متر - ٢متر - ٢,٥ متر، فتصبح هيئتها العامة - بما فى ذلك الرأس - حياة الزلعة أو البلاص وسيادتها موظفة (قد الدنيا - حرفيا - ولكن موكبها الحافل يبدأ بعد أن ينصرف الزوج والأولاد حيث تنهادرى إلى المكتب حاملة خضار الغذاء لتقوم بتقشيره وإعداده فى المكتب محتجة عن أعين الناس مستورة والحمد لله بين أكوام من ملفات حاجات الناس المعطلة منذ شهور وربما أعوام، وأجلس فى السيارة فى طريقى إلى العمل، وعلى خمسين مترا من ملتقى طرق نتوقف فى انتظار إشارة رجال المرور بالإفراج عنا إلى يمينى ويسارى وأمامى وخلفى علب الصفيح يملؤها الناس إلى جانبى سيارة نصف نقل يجلس إلى عجلة قيادتها سائق منسجم إنه يشعل سيجارة ليزداد انسجاماً فقد فتح راديو السيارة على آخره، ومضى يشنف أذنيه بأغنية:

يا أسمر يا جميل يا عليوة..

يا أمير يا عين أمك يا حليوة..

غنى لى يا حبيبى غنيوة..

وأضيق بهذا النغم زرعا، فأشير إليه، والرجل الظريف الطيب القلب يفهم ويقفل الراديو ويقفز إلى الأرض ويقترّب منى ويقول: ولا مؤاخذة يا سعادة البية، بنسلى الانتظار، ماذا نعمل؟ طول النهار ونحن على هذا الحال نخرج من زنقة لندخل فى زقاق..

وأقول له: متشكرا..

- محسوبك نبيل السيد أبو سريع الشهير بلبل ..

- متشكر يا أخ نبيل..

- ولماذا هذا التكليف؟ كفاية بلبل!..

- متشكر يا بلبل..

- إذا كانت هذه الغنوة لا تعجبك أغيرها ولا مؤاخذة عندي هنا ترسانة كاسيت.. تحب أدور لك كران..

- يا بلبل وهل هذا مكان يلىق بالقرآن؟ القرآن يحتاج إلى هدوء وراحة نفس وخشوع..

ويضيق زرعه بى فيقول وهو يهز يديه..

وماذا أعمل لك.. لا عليه يعجبك ولا الكران تسمح به..

لا عليك يا بلبل ولا تؤاخذنى، أنت ترى جهنم التى نحن فيها والغازات السامة تخنقنا..

وبعد دقائق من الصبر عاد بلبل يقول:

- إذن فعندى شريط كاسيت يعجبك تماما. ولا مؤاخذة يابيه أصل الواحد لازم يفرج عن نفسه إنه أغنية لمطربة الموسم (أحلام الغلبان) ألم تسمع بها؟ الكاسيت ثمنه ثلاثة جنيهات ونصف..

فى خفة الغزال قفز إلى سيارته وأدار الكاسيت: تعاليلى تعالى يا نفوسة..

محروسة م العين يا عروسة..

طعمك بقلاوة وبسبوسة..

- يا بلبل يا صديقى.. هل هذا وقت البقلاوة والبسبوسة؟..

- إذن ماذا أعمل لك يا بيه، غلبتنى..

وكانت السيارات قد زحفت بنا إلى حيث نستطيع رؤية رجال المرور. ورجل المرور كان يتحدث إلى صديق له، وينصرف الصديق وصاحبنا يعطينا ظهره وأنفه فى السماء، وأصابه تعبث فيها ويقول بلبل:

- تفتكر يا بيه.. بيدور على إيه؟..

- على مراكب الشمس؟ لا مؤاخذة.. مراكب القمر! لأن مراكب الشمس كشفها من سنوت صديقنا المرحوم كمال الملاح ويقول بلبل:

- مراكب إيه..

ولم ينتظر إجابتى فإن رجل المرور أفرج عنا وانفتحت أبواب الجنة، وبلبل قفز إلى النصف نقل وفى لمحة كان قد طار واختفى بسيارته وعليوه والبقلاوة والبسبوسة..



وخطوة خطوة نصل إلى ميدان التحرير. هنا سور الصين العظيم أو حاجز يأجوج ومأجوج، أصبحنا فى بحر من علب الصفيح يتصاعد منها الغاز إلى يسارنا وعلى بعد سيارتين حاجز النفق. هنا ينشئون مترو الأنفاق، وهناك حاجز هائل مخطط أبيض وأحمر يحجب عنك كل شىء ترى ماذا يصنعون هنا تحت الأرض؟ هنا يقولون إنهم يفتحون طريقاً إلى الجنة، ولكننا قطعاً سنصل إلى الجنة - إن شاء الله - قبل أن ينجز النفق. وفجأة ألح سيارة

بلبل على البعد والرجل الطيب يقفز إلى الأرض ويقبل نحوى مشوقاً
مبتهجاً، فقد أصبحنا زميلين فى التعاسة - وأقول له :

- إذن فأنت رغم مهارتك لم تغلت منهم :

- عيب يا بيه.. لقد أنتهزت الفرصة وخطفت طبق كشرى يعجبك!

أجيب لك واحد؟ إن الرجل هناك وراء الشمس..

- لا يا بلبل.. دور لنا عليوة..

- ما قلنا كده، قلتم اطلعوا من البلد..

والرجل الطيب اقترب منى لا أدرى كيف - بنصف النقل، وأدار سى

عليوة..

ثم قال: سأتيك بطبق كشرى بالدقة دى لهاليب يا محترم..

ويختفى قبل أن أرجوه أن يتريث، وأضع رأسى على كفى وأنتظر ما

سيحدث لى من الكشرى والدقة واللهايب. ومن بعيد تترامى إلى أذنى أنغام

أغنية أعرها..

الغالب عليك هو المكتوب.. يا ولدى!..

وصاحبى الذى يقود السيارة بى يترفق بحالى ويقول: إنزل أنت هنا

لتدرك حاجتك وسأبحث عن مكان «أركن»، فيه. وستجدنى فى انتظارك

هنا فى حوش المجمع ولا معنى لأن أصعد معك تسعة أدوار..

أما أنا فأصعدها، لأن المصاعد معطلة، وبعد تسع دورات كاملة على سلم

أكلته للأقدام حتى أصبح رخامة أرق من أحجار مداخل أهرامات الجيزة

أصل فى النهاية إلى المكتب الذى أريد. وأجد الباب مقفلاً وعليه فرائش

كأنه مالك خازن النار ويقول لى: ممنوع يا أفندم..

- ليه يا سيدى؟ خير إن شاء الله! هل السيد المدير غير موجود..

- إنها سيدة مديرة ولا مؤاخذة وهي لا تستقبل الجمهور إلا بعد الثانية عشرة، إنها منذ وصولها بالسلامة إلى الظهر تصرف شئونها الداخلية.. وأنظر فى ساعتى وأقول: لا بأس..! بقيت عشرون دقيقة، والفراش يرق لحالى ويحضر لى كرسيًا وأنا بحاجة إلى كرسى بعد تسلق هرم خوفو، ويجلس الرجل إلى جوارى ويعرض على سيجارة وأعتذر له بأننى لا أدخن فيسعد ذلك، ويجمعنا «الغلب» وتزول الكلفة بيننا ويقول:

- أصل السيدة المديرة - الحاجة المديرة أقصد - تنجز شئون المطبخ هنا، وعندها حق فهى تنصرف الساعة ٢ بعد الظهر، وتصل إلى بيتها الساعة الثالثة فلا بد أن يكون كل شيء معها جاهزًا للوضع على النار، وسيادتها متزوجة وعندها ولدان فى الجامعة وبنت فى الثانوية العامة وبنت مطلقة ومعها - باسم الله ما شاء الله - ولد وبنت..
- وما علاقة هذه العائلة الكبيرة بالعمل هنا?..

- قصدى - والكلام بينى وبينك، فقد انفتح لك قلبى، وسيادتك تبدو لى كأنك كنت مستشارًا..

- مستشار أو قاض يا عم..

- غنيم محسوبك، سيد غنيم أبو الروس فراش مكتب الحاجة المديرة ورئيس سعاة الدور التاسع. يسموننى المارشال، المارشال غنيم! ثم ضحك وقال: الله يجازيه الدكتور فتحى هو الذى أعطانى هذا اللقب. والدكتور فتحى والله يا سعادة المستشار كان هنا حتى موظف للشئون القانونية لا يساوى ثلاثة تمريفة، ولكنه الآن - عقبال عندك - شركات وعمارات وسيارات..

- وما الذى غير حاله?..

- دخل السياسة ورشح نفسه للمجلس - الكلام من عشر سنوات، لا.. من خمس عشرة سنة، أصبح نائبًا قد الدنيا ودخل فى شركة مع واحد من

الكبار وتزوج ابنته وطلق الغلبانة أم العمال وانفتحت له الأبواب، كل يوم شركة وكل يوم مكتب تصدير واستيراد جديد ودخل فى شركة مع شوكت عرفات..

- ومن شوكت عرفات؟..

- يا سعادة المستشار أنت تعرفه.. إنه أشهر من نار على علم، إنه بقاع المائة وخمسين مليوناً الذين أنشأوا من أجله هو وأولاده دائرة محكمة خاصة، وفى الآخر طلعموا كلهم هو وأولاده وأزواج بناته براءة..

وأنظر فى ساعة وأقول:

- طيب تسمح يا مارشال غنيم تشوف لى الست الحاجة المديرية..

فنظر إلى الباب وقال: هانت.. كلها دقائق.. ثم ينظر إلى السقف كأنه يبحث فى ذهنه عن شىء ثم يقول:

- لا يابيه.. أمامك على الأقل لسه نصف ساعة..

- ولماذا يا مارشال؟..

- لأن اليوم ولا مؤاخذة - عندهم محشى..

- محشى؟ وما دخل المحشى هنا..

- قصى يا سيدى المستشار إنهم فى بيت الحاجة المديرية يأكلون يوم الثلاث «محشى»، وسيادتها تأتى إلى هنا بالكوسة والطماطم والفلفل والباذنجان الأبيض أو الأسود والرز واللحم المفروم والبهارات وكل حاجة..

- وكل هذا تعده هنا..

- أmaal يا سعادة المستشار: كل العاملين معها فى الإدارة مشغولون اليوم بالمحشى: ست سناء والأستاذة ماجدة والأستاذ حسنى..

- وما دخل الأستاذ حسنى هنا..

- إنه المستشار القانونى الذى حل محل الدكتور فتحى وهو «مش قد كده فى القانون لكنه أستاذ فى الطبخ والشهادة لله ده أحسن واحد فى القطر المصرى يعمل خلطة المحشى. إنه يعملها فى بيته، ويأتى إلى المكتب بنها جاهزة والحاجة المديرية.. والست سناء تعدان الكوسة والفلفل والباذنجان وتقومان بالحشو أما الأستاذة ماجدة فهى أحسن واحدة تعمل الصلصة للدعة! وبعد أن تتم عملية الحشو يجئ دورى أنا وهو رص المحشى الجاهز على الطبخ فى العلب..

- أى علب يا مازشال؟..

- علب الجزم يا بيه، لأن أخى الأسطى حنفى غنيم أبو الروس عنده - ولا مؤاخذة - مصنع علب كرتون للجزم فى باب الشعرية، وأنا المكلف بإحضار العلب فى أيام المحشى المشكل أو ورق العنب فى الصيف، والست الحاجة المديرية تطلب منى سبع علب أو ثمانى بحسب ما تريد وهذا شىء معروف من سنين، وهم فى بيت الحاجة المديرية يعرفون أن كل يوم ثلاث الأكل جزم، قصى علب جزم، قصى محشى. وبينما تكون الست الحاجة المديرية قد أمرت بفتح الباب للجمهور يبدأ عملى فى المطبخ - أقصد حمام الإدارة - فأقوم برص المحشى فى العلب: ثلاث علب كوسة، وعلبتان باذنجان، واثنان فلفل، وفى أثناء ذلك تكون الأستاذة ماجدة قد أعدت الصلصة: عصرت الطماطم ووضعت فيها البهارات ثم تقوم بتعبئتها..

- فى علبه جزمة أيضاً؟

- لا يا سعادة المستشار، وهل هذا ممكن؟ تعبئتها فى زجاجتى مياه معدنية بلاستيك سعة لتر ونصف للواحدة، والست المديرية بعد ذلك تدخل وتتشطف وتتوضأ وتصلى الظهر حاضراً وبعد ذلك تستقبل الجمهور..

- ثم ينظر إلى الباب وقال وهو يبتسم:

- الحمد لله.. الآن جاء دورى لأدخل المطبخ أنا والأستاذة ماجدة
وسأسمح لك بالدخول لأنك رجل طيب، فتجلس على الكرسى أمام الست
الحاجة المديرية حتى إذا فرغت من الصلاة نظرت فى أمرى، وهذا الإجراء
استثنائى من أجلك والله العظيم لأن يوم الثلاثاء - يوم المحشى.. الست
الحاجة المديرية لا تستقبل الجمهور..

وسألت الله صبر أيوب، ودخلت وجلست حيث أمرنى المارشال غنيم
أبو الروس، وبعد قليل أتت الست الحاجة المديرية وهى تسيح، وتستغفر
بعد الصلاة فإذا بها 7 تصور المفاجأة - الست زلعة أو الست بلاص التى
ذكرتها لك فى أول هذا الكلام وتجلس وتقول:

- أهل وسهلا.. أظن أننى سبق أن رأيت هذا الوجه إنك لا تبدو غريبا
على..

- يا ست الحاجة أظن أننا جيران.. إننى أقيم فى الشقة أسفل
شقتكم..

- صحيح صحيح والدنيا تغيرت ولم يعد فيها خير، والجار لم يعد
يعرف جاره.. فكل إنسان غرقان فى متاعبه..
- إذن يا سيدتى المديرية إن لى عندكم استمارة..

- لا ، لا.. اليوم لا أنظر فى استمارات صرف، وأنا فى العادة
لا أستقبل الجمهور يوم الثلاثاء، وأنا لا أعمل استثناءات لأقاربنى أو
جيرانى، نحن ناس نصلى ونصوم ونعرف ربنا..

- عارف يا ست الحاجة.. أصل يوم الثلاثاء يوم المحشى..

- فنظرت إلى طويلا وقالت:

- محشى؟

فاستدركت أقول: قصدى عندنا فى البيت لا تؤاخذينى! هذه هى
بيانات الاستمارة.. ووضعت أمامها ورقة كنت أعدتها بالبيانات..

فتناولتها بأطراف أصابعها ووضعت النظارة على عينيها ونظرت فيها ثم رفعت رأسها إلى وقالت: من هذه البيانات أفهم أن هذه الاستثمارة لم ترسل إلى مكتبنا إلا من شهرين ولا اظن أنها وصلت، آسفة يا أستاذ تأتى بعد شهر..

ولكن يا سيدتى بعد هذا العناء..

فقلت وكأنها لم تسمعنى:

- ثم إن الأستاذة ماجدة التى تقوم بفحص الاستثمارات ومراجعتها ليست هنا الآن لقد أرسلتها فى مهمة..

ومرة أخرى خاننى لسانى فقلت:

- أعرف يا سيدتى إنها الآن..

- ماذا تعرف؟..

لا شيء لا شيء؟..

- إذن تعود بعد شهر..

يا سيدتى نحن جيران..

أنا لا أعرف الوسائط ولا الشفاعات ولا الجيران فى الشغل، أنا واحدة حاجة ثلاث مرات وقضيت أربع عمرات وأعرف ربنا كويس، ومع ذلك - ونظرا لسنك فقط - سأقول للأستاذة ماجدة أن تعد لك استثمارك تأتينا إن شاء الله الثلاثاء القادم..

ولا مؤاخذه يا ست الحاجة المديرية بلاش يوم الثلاثاء ده أصله يوم الـ... وللمرة الثالثة كاد لسانى يطب، وقلت هل أستطيع أن آتى الأربعاء مثل غد؟ فقلت: تستطيع! على أى حال استثمارك ستكون جاهزة من يوم الثلاثاء..

ونهضت وكانت الساعة الواحدة وهبطت السلم تسع دورات حتى وصلت إلى القاع وكأنه قاع الجب الذى القوا فيه سيدنا يوسف كان مظلمًا قليل الهواء لكثرة الناس فهذا موعد الانصراف يقترب، ووقفت على باب

المجمع أدور ببصرى باحثًا عن سيارة صديقى الذى لا بد أن يكون قد تفحم تحت هذه الشمس الحارقة. وحمدت الله فقد رأيتُه بعيدًا جدًا يستظل بشجرة وأشار إلى أن أنتظر حتى يأتى بالسيارة..

ودار رأسى وأنا أبحث عن مكان أريح عليه جسدى المكدود، وترامى إلى من بعيد صوت المعنى يشدو.. والغلب عليك هو المكتوب.. يا ولدى..

وحتى يأتى صديقى العذب معى ويخترق بسيارته ذلك الحشد الهائل من علب الصفيح والحديد اللتهب فرشت منديلا على السلم وجلست أستروح نسمة حائرة وإلى جوارى وقف عدد من الموظفين يتجادلون بصوت مرتفع. وهذه هى الطريقة المصرية فى التفاهم، وفهمت أنهم يتفقون فيما بينهم على تفاصيل رحلة سيقومون بها غدا إلى طنطا لزيارة السيد البدوى، وقد أخذوا إجازة يوم غد وانفقوا مع سيارة أوتوبيس وهم الآن فى انتظار رئيس الرحلة الذى ذهب ليثبت الاتفاق ويضبط الميعاد مع شركة السياحة صاحبة الأوتوبيس ويلتفت إلى الرجل يريد محادثتى ثم يقول معتذرا ولا مواخذه حسبك الأخ منسى.. الأستاذ منسى مساعدى فى تنظيم الرحلة أى رحلة..

– إذا كنت تبحث عن الأخ منسى فأنا منسى جدا وعز الطلب..

– فمضى هذه رحلة خاصة رتبناها ودفعنا اشتراكاتها لزيارة السيد البدوى لكى نسأله أن يتدخل ويتشفع فى قضاء حاجتنا المعطلة والساكين فى هذا البلد ليس لهم إلا السيد.. إنت زرت السيد البدوى طبعًا..؟..

لا لم أزره، لأنه لا يوجد رجل يسمى السيد أحمد البدوى..

– سبحان الله يا أستاذ وهذا الجامع الأحمدي العظيم ماذا فيه..

– الجامع الأحمدي موجود، هذا صحيح، ولكن المشكلة هى أننا

لا نعرف إن بداخله شيخ يسمى السيد أحمد البدوى..

فنظر إلى بكل ازدراء وقال عيب عليك يا أستاذ.. هكذا تقول بكل بساطة

وأنت جالس على بلاط السلم..

ماذا فى ذلك أستم تقولون إن السيد البدوى إن كان قد وجد كان يعيش
وينام على السطوح ولهذا تسمى طريقته بالسطوحية!..

فقال كل هذا العالم يعرف السيد البدوى ويزور السيد البدوى ويتوسل
بالسيد البدوى، وحضرتك تقول إنه غير موجود، أنا يا سيدى أحدثك بلغة
التاريخ، فإنهم يقولون إن السيد أحمد البدوى توفى سنة ٦٣٠هـ، وها هى
ذى تراجم أهل القرن السابع لا نجد فيها ذكرا للسيد البدوى مع أنه
معاصر للكثيرين ممن نعرف، وممن وردت تراجمهم فى كتب المقرئى وابن
حجر، فهذا عصر تقى الدين ابن دقيق العيد وعز الدين بن عبد السلام
ومحىى الدين النووى وكلهم مذكورون فى الكتب إلا صاحبنا السيد
البدوى، بل هذا عصر كبار الصوفية من أمثال أبى الحسن الشاذلى
وأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وسيدنا القطب الغوث أبى مدين
شعيب التلمسانى وإبراهيم الدسوقى وخضر العدوى وكلهم مذكورون فى
كتب التراجم إلا السيد البدوى، فإننا لا نسمع عنه إلا فى القرن التاسع
الهجرى أى بعد ذلك بقرنين من الزمان، وأول من ذكره جلال الدين
السيوطى وهو من هذه الناحية غير مدقق، وهو مع ذلك لم يذكر السيد
البدوى، ولكنه ذكر مولد السيد البدوى، وما كان يحدث فيه من مساخر،
والسلطان المملوكى جمقمق اضطر إلى إلغاء مولد السيد البدوى سنة ٨٥٢
هجرية لتلافى ما كان الناس يرتكبونه من المعاصى فى المولد، ولكن السيدة
حرم السلطان جمقمق زعمت أنها رأت السيد البدوى، فألحت على زوجها
فى إعادة المولد، والفقهاء الجليل ابن تيمية أنكر حكاية السيد البدوى
واحتج على مولده حرصا على الدين، هاجمه المنتفعون بالمولد..

طيب إيه رأيك يا أستاذ يا مؤرخ إننى قرأت بعينى سيرة السيد أحمد
البدوى فى طبقات الصوفية الكبرى للشيخ عبد الوهاب الشعرانى لأننى
وأسرتى أحمديون، ووالدى رحمه الله كان شيخ زاوية من الزوايا
الأحمدية..

وماذا قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى عن السيد البدوى قال إنه كان يمشى على الماء ويصلى الظهر فى طنطا والعصر فى مكة والمغرب فى المدينة المنورة وهناك كان يلتقى بالشيخ الراجكونى القادم من الهند، وبعد صلاة المغرب يعود كل منهم إلى بلده ليصلى العشاء فيها:
بالطائرة؟ تقصد أنهم كانوا يعودون بالطائرات؟..

- لا يا سيدى هؤلاء كانوا من أهل الخطوة أى أن الواحد منهم ينوى الذهاب إلى بلد ما، مثل مكة فيقرأ التعازيم والأوراد ثم يخطو خطوة فإذا هو فى مكة..

- هل رأيت فى حياتك رجلا من أهل الخطوة هؤلاء؟..

لا.. هؤلاء أهل زمان. أيام البركة والإيمان. كانوا مع الله ولهذا كان الله معهم، والواحد منهم كان يقول أطعمنا يا كريم: فإذا أمامه مائدة عليها كل ما لذ وطاب..

هل أنت متعلم..

سيحان الله. ليسانس حقوق سنة ١٩٦٧م..

لازم دور سبتمبر....

أجل من قال لك..

لا أحد، ولكنك تخرجت فى خريف النكبة، وكل شيء كان ممكنا إذ ذاك، وجيش مصرى كامل تبخر فى يوم واحد.. هو يوم ٥ يونيو قبل تخرجك بثلاثة شهور..

وانصرف الرجل عنى.. وصديقى نجح فى الاقتراب وهذا هو يشير إلى من بعيد وأنا أنهض وأقول فى نفسى ماذا أفعل لكم يا أهل بلدى يا أعز الناس على.. ويامن أنفقت العمر بينهم أعلم وأفهم، ومن بعيد يترامى إلى سمعى صوت المنشد يقول والجهل عليك هو المكتوب.. يا بلدى!..

نحن لا نحب الفردق*

بعد صبر طويل مرير وغير جميل رصفوا لنا شارعنا وشارعين ثلاثة حوله. رصفوها على طريقتهم من اللكلكة والمهرجلة وثقل الظل وخفة العقل مع العنصر الذى لا يمكن أن يخلو منه أى عمل من أعمالهم، وهو اللذة فى حرق أعصاب الناس: يجيئون يوماً عند الغيب ويطوف مناديتهم بعربة فيها لعبة اشتروها ليتسلى بها اسمها الميكرفون، وينادى الناس يأمرهم برفع السيارات من الشوارع لأن الرصف قادم الليلة ولا ريب فيه، ويتسارع الناس ويرفعون سياراتهم ويكدسونها فى الشوارع الجانبية، وسيارة الميكرفون هذه لعبة لطيفة وطريفة، ففى أثناء النداء والتنبيه يحشر المنادى موضوعاً شخصياً فيقول: يا إبراهيم، وحياة أبوك هات لى معاك سندويتش بسطرمة وعلبة كيلوباترة، وبعد ساعة تصبح عربة الميكروفون عربتين: واحدة تنادى والثانية تكاكي، ثم تأتى سيارات ذات مصابيح كشافة مسلطة على الأرض. وحوالى التاسعة مساء يكون الشارع قد خلا إلا من السيارات المارة، والميكروفونات تصيح والأنوار تضوى، ونأوى إلى فرشنا ونحن نمنى النفس بشوارع مسفلتة ناعمة كالحرير، وأرصفة آمنة مبسوطة دون مقالب أو مطبات ونصحو من الغد وتنتسرع إلى الشبايك لنملاً عيوننا من شوارع الأحلام، فلا نجد أصحابنا قد صنعوا شيئاً، فهذه شوارعنا كما هى، وسياراتهم ذات مكبرات الصوت والأضواء الكاشفة قد ذهبت، والمسألة كلها كانت دعاية، وبعد أيام، ودون إخطار، والسيارات رابضة على جوانب الشارع وجائمة فوق الأرصفة يأتون بعد العاشرة ليلاً بقاذفات الأسفلت والسيارات ذات الأضواء وخمسون كوماندة على رأسهم باشمهندس يتصايحون، ويصبون الاسفلت على الأرض تاركين مواضع السيارات كما هى، وخلف قاذفات الأسفلت تسير عربة ضخمة تنطلق منها خراطيم زفت

* نشرت هذه المقالة فى ٢٦ مايو ١٩٨٥ م.

يمسك بها رجال ويصبون منها على الأرض فى المواضع التى خلفتها القاذفات الكبيرة، وواحد منهم يمسك بخرطوم الزفت فى يد وساندويتش بسطرمة فى اليد الأخرى، ويصب صبة ثم يقضم قضمة. ثم يضع الخرطوم على الأرض ويخرج علبة السجائر ويضع واحدة منها فى منقاره، ويمضى هكذا يصب القار ويأكل الساندويتش-ويشرب السجائر.

ومهما يكن الذى للكوه فقد أصبح لدينا جزء من نهر الشارع مسفلتا وفرحنا به وخفنا أن نبدى أى ملاحظة خشية أن يعودوا فيأخذوا الأسفلت الذى وضعوه.

وأعجبتهم طاعتنا وحسن امتثالنا، فعادوا بعد أيام لينشئوا لنا رصيفا جديدا. والذى حدث أن نفرا من العمال مروا بالقنوس فحطموا الرصيف البالى، وكوموا الحطام تلالاً رهيبه، ثم مرت حافلات مهولة فألقت صفوفاً من مستطيلات الأسمنت التى ستصبح كرانيش الرصيف أو أفاريزه، ثم مر رجال ببذلات صفراء نصف مبهذلة، والواحد منهم يسمى الباشمهندس، وخلفه عدد من العيال، وهؤلاء العيال صبوا فى موضع الرصيف رملأ كثيراً ثم ماء وجيرا فيما أظن، ثم أتت عربات تحمل بلاط الرصيف أحمر وأصفر والعيال رصوا البلاط: واحدة حمراء وأخرى صفراء، ثم أتى رجال فصفوا مكعبات الأسمنت إفريزا ارتفاعه ثلاثون سنتيمترا، وبعد أيام انتهى ذلك كله، ومرت حافلات أخذت الأسفلت القديم وتركت بقايا مكعبات الأسمنت ومضت وانتهت العملية، وكل واحد من أولئك العيال يأخذ خمسة جنيهات فى الوردية، وهو يتبعها بوردية ثانية فيكون دخله فى اليوم والليلة عشرة جنيهات، هى فى الشهر ثلاثمائة جنيه.

المهم: أصبح لدينا رصيف تكنيكولور محترم نستطيع أن نسير عليه ونصون أنفسنا من أخطار السير فى نهر الشارع، ونحن يا سيدى ناس أهل قناعة ورضا بالقليل، وقد علمنا الغلب الرضا والسكوت والصبر والأدب

الغزير. وأصبحنا نسير على أرصفتنا تلك سعداء راضين، والواحد منا يقول لنفسه: أيها النبي آدم الناصر للجميل، يا من لا تستحق الرصيف أو الرغيف! أحمد ربك وقبل يدك وجها لظهر وادع للباشمهندس بطول العمر والرخاء ولعياله بوفرة السجائر والشطائر والبركات.

ولكن يبدو يا أخی أن تأدبنا البالغ معهم وسكوتنا عن عيوب هذه الأشياء التي تساهلنا فاعتبرناها رصفا، أطمعهم فينا فقرروا حرماننا منها.. استكثروها علينا لأننا لم نتهذب معهم إلى الحد الذي يرضيهم. فصحونا ذات يوم فإذا كل رصيف قد تغطى بدكان عجيب من الخشب والبلاستيك والفورمايكا والحديد المشغول والزجاج. الدكان الواحد يشغل الرصيف كله ويمتد مسافة تتراوح بين عشرة أمتار وخمسة عشر، وكلها برتقالية لونها بلون أنبوية البوتاجاز، وقد نشروها على أرصفتنا نشرًا حتى لم تبق لنا أرصفة، وقالوا: هذه مجمعات استهلاكية رصيفية مستقبلية لا ينعم بمثلها حتى أهل أمريكا، ومن ميزات الكبرى أنك إذا أردت الشراء منها فلا بد لك من الوقوف تحت الرصيف في المسافة الصغيرة بين السيارات الرابضة والرصيف الرفيع الذرا، وتمر أمام الأقسام وأنت لا تدري ما عسى أن يصيب ظهرك، والبائع ينظر إليك من أعلى كأنه مستشار على منصة القضاء، ومدير هذا المجمع ينظر إليك في خيلاء ويقول: كل الأقسام عندنا.. هذا قسم الخضار، وهذا قسم الفاكهة، وهنا الألبان والأجبان والأزباد (جمع زبد) والأسمان (جمع سمن)، وهنا المرببات والمخللات، هنا اللحم وهناك السمك، وتلك هي العلبات: سردين وتونة وبلوبيف لحم بقرى.. صناعة مصرة مائة في المائة، كله يا سيدي «ميد إن ايجبت».

وأقول له: أي نعمة يا سيدي تتفضلون بها علينا. وأي منه تطوقون بها رقابنا المسممة! سألتك بالله ألا حملت أخلص تحايانا وأصدق تشكراتنا لسيدك وزير التموين والتجارة الداخلية والخارجية والعلوية والسقلية إذا

شئت، فهو والله يستحق ذلك كله واكثر، وتفضل يا سيدى وأعطنى كيلو من اللحم البتلو الخالص (ميد إن ايجبت).

- هذا بكرة!

- إذن فكيلو من السمك.

- هذا بعد بكرة!

- إذن فكيلو من الدقيق.

- ما فيش دقيق.

- إذن فكيلو سكر.

- ما فيش سكر.

- إذن فزجاجة زيت.

- ما فيش زيت.

- لا دقيق ولا لحم ولا سمك ولا زيت ولا سكر، فماذا لديكم إذن؟

- أنظر، هذا لبن طويل العمر.

- بكم اللتر؟

- بسبعين قرشا.

- هكذا هو عند البقال.

- ولكنه عندنا شيء آخر.

- هذا واضح، فهو عند البقال محفوظ فى مكان مصون، لأن الرجل يحافظ على ماله، أما عندكم فأنتم قطاع عام، ومال القطاع العام ملك الشيطان، وهذا هو اللبن عندكم موضوع فى الشمس من صباح ربنا، والعلبة التى تتلف ترمى فى الزبالة ولا شيء يهتم. وهذا هو البيض عندكم فى الشمس ولاهد أنه استوى، ولبن الزبادى تحول إلى حامض لبنيك، والجبن القريش تحول إلى حامض كلوردريك، وأنتم موظفو حكومة وأين من

يستطيع أن يقول لموظف الحكومة بم، والزبدة يا سيدى ساحت وناحت وتحولت إلى شحم ماكينات.

- ولكنك يا سيدى لم تر قسم الحلويات والمكسرات الذى افتتحناه استعدادا لبشهر رمضان. هنا يا سيدى شوكلاتات وملبسات ولولى بوبات وفول سودانى وارد مزارع الصديق العزيز مستر جيمى كارتر فى أمريكا اسمه روست بيناتس، ولوز وجوز وزبيب وقمر الدين وفزدق، لقد تعاقدنا على فزدق تركى ويونانى بخمسة ملايين من الجنيهات، تستطيعون أن تأكلوا الفزدق وتشربوا الفزدق وتستحموا بالفزدق إذا شئتم.

فقاطعته قائلا: ومن قال لكم يا أخى إننا فى حاجة إلى الفزدق؟

وقال رجل طويل اللسان: لا أحد طلبه منهم، ولكن عمولته عالية.

وقال البائع: وهل أحد يكره الفزدق؟

قلت: إن الذى يطلب الدقيق ولا يجده يكره الفزدق. وفيم ينفعنا البندق والفزدق إذا لم يكن لدينا الدقيق أو السكر؟ نحن يا سيدى ناس جادون مرهقون نطلب الضرورى، وأنتم ناس مدللون تبحثون عن الكمالى.. بسببكم يا سيدى كرهنا الفزدق، وكل ما هو جميل فى الحياة، وكل هذا الدكان العجيب لم نكن بحاجة إليه لأننا فى أشد حاجة إلى الرصيف منا إلى الفزدق أو اللولى بوب أو البيئات الأمريكانى العحمص.. خذوا الفزدق وأعطونا الدقيق. وقولوا للجان الشراء والتعاقد التى تقوم برحلات ترفيهية على حسابنا: إننا لا نحب الفزدق.

وفى استطاع تليفزيونى عن التقدم الهائل الذى تحقق فى ميدان التليفونات مازالت فى أذنى كلمات موظفة لا أدرى فى أى سنترال هى.. تقول: لقد أدخلنا التليفون السوير أوتوماتيك والابسوفون وتليفون الفولو أب، والأول يطلب بدلا منك النمرة مرة بعد أخرى حتى يحصل عليها لك وأنت جالس مستريح، والثانى يسجل لك المكالمات التى تأتى وأنت

غائب، وعندما تعود وترفع السماعة يكرر عليك المكالمات والرسالات، أما الثالث فإنك تسجل على الآلة المكان الذى ستذهب إليه، فإذا أتت مكالمة بعد خروجك تحولت تلقائياً إلى الرقم الذى أنت فيه، وإذا طلبك أحد على رقم منزلك ولم يجده تحولت المكالمة رأساً إلى تليفون سيارتك، فإذا لم تجدك انتقلت إلى تليفون مكتبك. وسرني هذا التقدم العظيم الذى أحرزته بلادى. وأردت أن استعلم عن رقم طبيب أريده، فبحثت فى دفتر التليفون - آخر طبعه - عن رقم استعلامات الدليل، فلم أجده إلا بشق النفس فى ذيل إحدى الصفحات، وبهذه المناسبة أنصح هيئة التليفونات بأن تتقدم بدليلها هذا إلى مسابقة أسوأ دليل تليفونات فى العالم، فإن الأخطاء فيه تصل إلى حد الابداع والاعجاز، والخطأ يبدأ فيه من الغلاف، فإن هذا الغلاف يقول لك: الجزء الأول من حرف أ إلى حرف س، والجزء الثانى أيضا يسمى الجزء الأول من حرف ش إلى حرف ل، والجزء الثالث لم نحصل عليه بعد. وعندما سألنا عنه قيل لنا: لا تتعب نفسك وراء هذا الجزء لأننا سنبدل كل أرقام القاهرة فى الصيف القادم، لأن تليفونات القاهرة ستصبح ذات أرقام سبعة مثل البلاد المتقدمة جداً مثل جدة والرياض والكويت.

ورأى صديق فى حيرة، فتناول الجزء الأول، ودلنى على رقم استعلامات الدليل وهو ١٤١ و ١٤٢، ورقمين آخرين، وجلست ساعة أتوسل إلى واحد من تلك الأرقام أن يرد دون جدوى، وأنا أرجو سيدى الوزير العظيم أن يقنع واحدا من هذه الأرقام بأن يرد على سيادته أو أى مواطن. فالغالب أنها هناك زينة أو فزدق، وفى ذات مرة أدت رقم ١٤٢ فرد على صوت خنشور رهيب وقال:

- لا يا فندم هذا ليس رقم استعلامات الدليل.

- ومن تكون؟

- ديوان المظالم.

ففرحت وقلت: ديوان المظالم الذى أنشأه الخليفة العباسى الثالث محمد المهدي سنة ١٦٠ هجرية ٧٧٧ هجرية؟

فقال الخنشور المذكور أعلاه: هجرية إيه وميلادية إيه أيها المخرف؟.

- لا والله لست مخرفاً ولكنى رجل أسعده أن يعلم أن فى بلده ديوان مظالم.

- ولماذا يسعدك ذلك.

- لأن لدى ألف مظلمة ومظلمة، وأحمد الله أنى وجدتكم.

- احمد الله كما تشاء ولكننا هنا لن ننفعك فى شىء، لأننا نحن لا نجد من ينصفنا، فأنا مثلاً خريج حقوق القاهرة سنة ١٩٦٤ م، وقد تخطونى فى درجة وكيل الوزارة أربع مرات إلى الآن، ألا تعرف أحداً ينصفنى؟. إن ديوان المظالم يا سيدى إن هو إلا أحد الجراجات الحكومية التى يحيلون إليها أمثالى من المظلمين الذين يريدون دفنهم بالحياة.

- أعطنى اسمك يا سيدى وعندما يرقوننى وزيراً فإننى سأفتح عهدى السعيد بالنظر فى تظلمات وكلاء الوزارات..

- أنت تهزل يا رجل؟

- لا والله أنا لا أهزل ولا فى نفسى مكان للهزل، إنما أنا رجل زهقان من أولئك الناس الذين ينشئون شيئاً يسمونه ديوان المظالم ويتركونه دون عمل. وتعبان من ناس لا تجد عندهم كيلو دقيق أولتر زيت، ولكنهم يشترون باسمنا مليونى طن فزدق، ويطبعون دفتر تليفونات كله أخطاء ثم يحدثونك عن التليفون السوبر أوتوماتيك وتليفون الابسوفون، إنهم يا سيدى ناس فزدقيون خليون يبحثون عن الكمالى ونحن ناس مهمومون نطلب الضرورى، لقد تعبنا من عقلية الفزدق هذه..

وبمناسبة عقلية الفزدق هذه أذكر أنني كنت من مدة قصيرة فى روما أحضر مؤتمراً، واحتجت إلى زيارة المكتب الثقافى، وفيه كما علمت مستشار ثقافى عظيم بدرجة وكيل وزارة، فذهبت إلى هناك فقبل لى إن سيادته غير موجود.. مسافر.. فسألت عن محل فقبل لى إن وكيل المكتب وهو ملحق ثقافى غير موجود أيضاً، وقيل لى إننى أستطيع اللجوء إلى مدير الأكاديمية وهو بدرجة مستشار ثقافى، ولكل من هذين الموظفين الجليلين سيارة حكومية وسائق ومكتب وسكرتارية، وذهبت إلى الأكاديمية فلم أجد المدير أو الوكيل، وهو ملحق ثقافى. وجعلت أتعجب، فنحن المشتغلين بالشئون الثقافية نروح إلى إيطاليا ونجئ منها ونحضر المؤتمرات ولم نحس مرة أن لنا مكتباً ثقافياً فى روما، فإذا بنا ننفق على مكتبين ثقافيين كاملين فى كل منهما مستشار بسيارة وسائق وملحق ثقافى ومكتب وحاشية، ومع هذا فهأنت ذا لا تجد أياً منهما إذا احتجت إلى خدمة ثقافية..

وعندما عدت إلى المؤتمر الذى كنت أشارك فيه فى روما سألت زميلاً انجليزياً:

- كم مكتباً ثقافياً لكم هنا؟

- ولا واحد، الشئون الثقافية يتولاها مستشار السفارة بمعاونة رجل واسع الثقافى بسمى ديربك آشبى عاشق لإيطاليا مقيم فى روما وزوجته أصلها إيطالى وهو يقوم بالشئون الثقافية فى السفارة فى مقابل مكافأة إجمالية قدرها ألفا جنيه، وأنا أقول لك ذلك عن معرفة، فالرجل مشهور عندنا معروف لكل زوار إيطاليا من البريطانيين، وهو رجل فى غاية الكفاءة تطلب منه الخدمة اليوم فتكون عندك من العدد..

وأثناء جلسة المؤتمر سبح بى خيالى ووجدت نفسى أقول: ألفا جنيه إنجليزى، أى راتب كل واحد من سواقى المستشارين الثقافيين المصريين فى روما! وهذا معقول مادامت عقلية الفزدق تسيطر علينا، فإن بريطانيا

ولها هنا لا أدري كم معهدا تابعا للمجلس الثقافي البريطاني (البريتيش كاوفسل) وستة بيوت وقصور ثقافية انجليزية أهداها انجليز من عشاق إيطاليا إلى دولتهم بما فيها من أثاث وتحف وعليها أوقاف ومبالغ مالية فى البنوك تقوم بنفقاتها.. بريطانيا هذه ليس لديها هنا مستشار ثقافى ونحن ليس لدينا هنا إلا أقل من عشرة طلاب، لدينا مستشاران ومحلقتان ثقافيتان وسيارتان ثقافيتان وسواقان ثقافيتان، وهؤلاء جميعا يا سيدى غير موجودين الآن! نتكلف أكثر من مائتى ألف دولار فى السنة مقابل لا شيء، هذا هو شغل الفزدق على أصوله..

وهذا كله معقول على طريقتنا، فإن أمريكا كلها ليس فيها إلا ستة عشر وزيرا يديرون أمور الدنيا، وكذلك بريطانيا ليس لديها إلا ستة عشر وزيرا، أما نحن فلدينا واحد وثلاثون، لأننا ناس قيافة وألاجة وفزدق، وواحد من هؤلاء الوزراء بلغت الحاجة إليه فى شغل إحدى الوزارات إلى درجة أنهم دقوا بابه فى منتصف الليل وسألوه أن يتدارك مصالح مصر ويتولى هذه الوزارة قبل طلوع الشمس والا خربت الدنيا، ولأن عمل سيادته حيوى جدا فقد بدأ عمله من الصباح بإنشاء مكتب جديد وحمام جديد لنفسه، وأنفق فيهما من مالنا - مال قارون - سبعين ألف جنيه، وعنده حق لأن هناك مثلا يقول: إن من وجد الدلال ولم يتدلل حسابه الملائكة. إنه وزير فزدق، ومادام وزير فزدق فكيف يقنع بمكتب وحمام بأقل من سبعين ألف جنيه!..

وقد عرفنا منذ حين قريب أن فى مصر رجلاً جليلاً خطير الشأن يسمى خليفه السيد البدوى، ورجلا آخر أقل خطورة يسمى حامل مفاتيح مقام السيد البدوى، والأول يتقاضى أربعين ألف جنيه فى السنة، والثانى عشرين ألفا من صندوق نذور شيخ العرب السيد البدوى، وذلك من النذور التى يضعها ناس طيبون يعيشون فى العصر الحجرى فى صندوق النذور، ظنا منهم أن هذه التبرعات العبيطة ستسهل عليهم أمر دخول الجنة. قلنا:

وما عمل خليفة شيخ العرب يا سيد؟ قيل: عمل مرهق فعلاً، فهو كل سنة يرتدى جبة خضراء وعمامة حمراء وحزاماً مذهباً ويركب حصاناً ويسير بين الرايات والبنود بين صفين من المقاويل يذكرون على نعمات الطبول حتى يبلغ المسجد فيدخل يجلس يوم المولد ويجلس على شيء يشبه العرش وبينما يخطب الخطباء ويذكر الأتقياء يكون صاحبنا في سابع نومة، وهذا هو عمله الخطير الذي يتقاضى عليه أربعين ألف أهيف في السنة..

أما حامل المفاتيح فإن بيده مسئولية خطيرة هي حمل مفاتيح مقام السيد، لأنهم يا عزيزي يخافون أن نصحوا يوماً فلا نجد السيد في مقامه، وهنا ينقلب ميزان الدنيا، وهذه هي خطورة وظيفة صاحب المفاتيح، وأظن أنني قلت مرة إنني لم أجد السيد البدوي في القرن السادس الهجري الذي يقولون إنه عاش فيه، ولا ذكر له في حروبنا مع الصليبيين، مع أن أصحابنا يزعمون أنه يحتل مكانته في الولاية بسبب أعماله الجليلة في محاربة الفرنج، ولكنه يظهر في القرنين السابع والثامن، وعبد الوهاب الشعراني يذكر له عملاً جليلاً جداً وهو أنه عندما تزوج لم ينجب فنصحته الناس بأن يأخذ عروسه ويخلو بها في مقام السيد، ففعلت وحملت عروسه..

وتبلغ حصيلة صندوق النذور فوق نصف المليون من الجنيهات لا ينال الفقراء منها شيء، وإنما هي توزع على الخليفة وحامل المفاتيح وعلى موظفي وزارة الأوقاف ونفر آخر من المحاسبين، ولا ينفق من هذه الأموال شيء في عمارة مسجد السيد أو مقامه، فهذا ننفق عليه نحن أموالنا، وهذا أيها السادة هو الفزرق على أصوله، فزرق طنطاوى لا حليبي..

وحيثما وجهت وجهي فإنني أجد الفزرق، ففي أي مركز من مراكز الأقاليم نحن في أشد الحاجة إلى شيء واحد كفيلاً بإنقاذ عدد كبير من شبابنا من الضياع، وهو معهد صناعي زراعي عملي يعطى شبابنا مهارات

فنية تفتح أمامهم ابواب العمل النافع التقدمى والرزق الكريم، ونحن لا نكف عن التحالى بالكلام عن التكنولوجيا، فلنعمل عملا تكنولوجيا حقيقيا لنخدم بلادنا إذا كنا نحبها حقا، ولكننا لا نحب بلادنا، بل نحب نفوسنا، ولأننا نحب أنفسنا فنحن لا ننشئ المعاهد الحرفية الصناعية على أعلى مستوى تكنولوجى، وبدلا من ذلك نقدم على إنشاء جامعة، ونحن نعرف تماما أننا لا نملك فى الغالب أى مفهوم من مقوماتها: لا المبنى ولا هيئة التدريس ولا المال، كل ما لدينا هو الفزدق، وعقلية الفزدق تقول لنا إن الجامعات عياقة وزينة، وكيف تكون محافظتنا محافظة محترمة بدون جامعة؟ وهذا هو كتاب الشيخ عبد الباسط الذى حولناه من أربعين سنة إلى مدرسة ابتدائية ثم ثانوية نستطيع أن نبدأ الجامعة به فنحيله كلية تربية، ونجمع تبرعات من أهل البلد، وهذه عشرون ألف جنيه يضحى بها أهل المحافظة ويقدمونها للحكومة وعليها الباقي وقدره عشرة ملايين من الجنيهات، وتبدأ الجامعة فى مبنى متواضع فقير فى صورة كلية تربية على رأسها مدرس تربية أخذناه من إحدى الجامعات ورقيناه أستاذا مساعدا وجعلناه عميدا بالنيابة، وبعد عام ترفعه أستاذا وعميدا وهاهى ذى الجامعة قد قامت وعشرة آلاف ينحشرون فى هذه الكلية لكى يدرسوا الهواء، وبدلا من أن يتعلموا شيئا ينفعهم وينفعنا يتعلمون لا شيء، وينضمون بعد سنوات إلى جحافل البطالة المقتنة وفرق الشباب التعبان فى كل ناحية من نواحي حياته.

وليصدقنى القارئ عندما أقول إن هذا ليس نقدا للجامعات الإقليمية أو مساسا بأى هيئة من هيئات تدريسها، فكلها على العين والرأس، وكل العاملين فيها زملاء أعزاء، ولكننا نرى الآن أن الإكثار من الجامعات أثبت أنه ليس حلا لمستقبل الشباب ولا للمستوى العلمى فى البلاد، إنه حل فزدقى لا طائل وراءه ومن القواعد المقررة أن أى شيء يبدأ بداية غير سليمة

لن ينصلح حاله أبداً، والخطأ لا يؤدي إلى صواب أبداً، ونحن الآن في حاجة إلى الحلول الواقعية لا إلى الفانتازيا والعياقة والفرزدق، نحن في حاجة إلى الدقيق لا إلى الفرزدق، وبدلاً من المكسرات والياميش والفرزدق نحن في حاجة إلى الدقيق والقمح والضروري إن أحداً لم يطالبكم بالفرزدق لأننا - بصراحة - لا نحب الفرزدق.

إلى من لا يهمهم الأمر !

فى آخر لقاء لى مع توفيق الحكيم (الخميس ٢٥ مايو ١٩٨٥ م) أسعدنى أن أجدّه مشرق الوجه، متألق العينين منتعشا، يبهرك بنصاعة ذهنه وحضور بديهته. ولكنه لم يكن متفائلا بالنسبة للكتابة وجدواها فى هذا البلد وفى حديثه مع نجيب محفوظ ومعنى قال: لن أكتب بعد الآن، فلا معنى للكتابة فى هذا البلد، والناس يقرأون ما نكتب نصف نعتانين ثم يدعون ولا يعودون يفكرون فيه كأنهم لم يقرأوه ولم يسمعوا به، وخاصة إذا كانوا من المسئولين، فهؤلاء لا يقرأون أبداً، ولماذا يكتب الكاتب إذا لم يكن له قارئ، يفهم عنه، ويتجاوب معه، أو يحاوره، فيتحرك الفكر، ومع حركة الفكر يصبح للحياة معنى وطعم وقيمة. قلت: عندك حق يا شيخ المفكرين، وإذا كنا قد نئسنا من المسئولين لأنهم جميعا ممن لا يهمهم الأمر، فلنكتب إلى غير المسئولين. لنكتب..

فإن الذين نتصور أنهم المسئولون، إنما هم فى الحقيقة غير مسئولين، ولا يهمهم الأمر، أما المسئولون الذين يحسون بالمسئولية حيال هذا البلد. فهم.. نحن الذين يحسب الناس أن الأمر لا يهمهم، وإنهم لا يستطيعون شيئاً لأنهم لا يتمتعون بسلطان، ولا هم يحتلون مراكز مسئولية، لنجرب أن يكون كل حديثنا إلى من لا يهمهم الأمر، فهم الأمة إنهم الشعب إنهم القوة الحقيقية. وقد آن الأوان لأن نتعرف على أننا نحن الأساس. نحن مركز الثقل. آن الأوان لأن نكف عن رجاء المسئولين أو عقد الآمال عليهم والوقوف بأبوابهم، هذه عادة ذميمة ينبغى أن نتخلص منها، ونبدأ التعود على القيام بمصالحنا ورعاية أمورنا، كما يفعل الناس فى البلاد المتقدمة،

* نشرت هذه المقالة فى ١٦ يونية ١٩٨٥ م.

ومن المؤكد إنهم إذا وجدونا مبادرين إلى العمل تحركوا للعمل معنا. وإذا كنا نقول أن الأمة هي مصدر السلطات فلنعمل على أن يكون ذلك حقيقة لا كلاماً، ولنذكر دائماً أننا إذا كنا نريد أن يتحرك المسئولون، فلنكن نحن البادئين بالحركة، لنكن نحن السابقين، وهم اللاحقون. وهذه هي القاعدة التي يجرى عليها العمل في البلاد المتقدمة، وتلك البلاد متقدمة لأن الشعب يقود فيها كل شيء. والوظيفة الحقيقية للجهاز الحكومي هناك هي التنسيق بين جهود العاملين لتحقيق من وراء ذلك للعمل كله وحدة قومية وقوة علمية وسياسية واقتصادية ذات هدف واحد وقوة محركة..

وقبل أن أمضى في هذا الكلام أرجو أن يأذن لي القارئ الكريم في أن أفتح قوساً أستثنى فيه من كلامي هذا ثالث الأمان الذي نعيش في ظلّه في أيامنا هذه: رئيسنا الأكرم محمد حسنى مبارك، ورئيس وزرائه اليقظ العاقل البعيد النظر السيد كمال حسن على، ووزير داخليتنا أحمد رشدى الذى دل على أنه فعلاً من أعظم من تولوا هذا المنصب فى أيامنا، فإن أجهزة الأمن تحت قيادته أجهزة أمن فعالة حقيقة، ونحن جميعاً ننام آمنين فى هذا البلد لأنهم ساهرون، ولايد أن أدخل فى هذا القوس معهم الدكتور مصطفى كمال حلمى* الذى أصبح مع الزمن فيلسوف التربية والتعليم فى بلادنا، ولو أعانته الظروف على أن يحقق آماله لاستطاع أن يقدم لهذا البلد أضعاف ما قدم ويقدم، والدكتور ماهر أباطة وزير الكوبرياء الذى يقودنا فعلاً إلى عصر الصناعة..

وكنت أحب أن أدخل فى زمرتهم راعى الزراعة فى أيامنا الدكتور يوسف والى ولكنى لا أدرى لماذا يصر دائماً على أن يقول فى كل حديث له: تنفيذاً للتوجيهات الفلانية فإننا اتجهنا فى الخطة الخمسية إلى كذا أو تنفيذاً لما قيل فى المناسبة الفلانية، فإننا نوجه جهداً كبيراً فى توسيع الإنتاج من اللحم الأبيض أو الأحمر أو الأزرق، وأقول له: يا سيدى إنك

* كان وزير التربية والتعليم فى هذه الفترة .

بطبيعة مركز العلمى وبحكم مكانتك القومية الكبيرة وخلقك الذى نتخذه جميعا قدوة وأنت بهذه كلها يا سيدى مصدر التوجيه والإلهام والتخطيط الزراعى كله، ومعن يا سيدى ينتظر التوجيه الزراعى والصناعى والزراعى إلا منك؟ إننا جميعا ننظر إليك وننتظر من يدىك سياسة زراعية غذائية صادرة عن علمك وفهمك وتجربتك، وهذه هى وظيفة عظام الوزراء فى البلاد التى قدر الله لها أن تخرج من مستنقع التخلف والفقر والقوضى الإدارية، وفى منتصف الستينات ذهب ادجار فور وزير الخارجية الفرنسية المشهور إلى دى جول وقال له: إننى لا أدرى ماذا أعمل فى المشكلة الفلانية..

فقال ديجول: أنت لا تعرف وتنتظر منى أن أعرف؟

- أتيت آخذ الرأى والتوجيه منك..

- وأين ملكاتك وخبرتك أيها الوزير؟ وأين نواب الشعب وفيهم قطعاً من يعرفون أكثر منى عن المشكلة التى أتيت تعرضها علىى يا سسيو فور، إننى لا أحب الوزير الذى يحمل مشاكله ويضعها على كتف رئيس الدولة، وما نجح النظام السياسى الإنجليزى إلا لأن المسئولين فيه يعرفون حلول المشاكل التى تقع ضمن مسئولياتهم، وما احتاجوا إلى رأى فيه عرضه على البرلمان، وتشاوروا مع أعضائه فيه ثم ذهبوا برأى الأمة فى مشاكلهم إلى الملكة، فربما كان لديها ما تضيفه بصفقتها ممثلة أطول المؤسسات السياسية عمراً وأكثرها تجرية، وقلما تفعل.

وفى المساء استقال ادجار فور من وزارة الداخلية، واتصل به دى جول بالتليفون وقال له:

ماذا فعلت يا سسيو فور

- يا سيدى الجنرال لقد أخرجتني بكلامك هذا الصباح. ولم أجد أمامى إلا الاستقالة.

- ولكنى لا أستغنى عن رأيك يا مسيو فور.. جرب حظك فى وزارة التعليم. لقد قبلت استقالتك من الداخلية وعينتك وزيراً للتعليم، فلك فيه خبرة طويلة وآراء نافعة. وجامعاتنا فى حاجة إلى رأى سديد مثل رأيك ويد حازمة.

وبالفعل نجح ادجار فور فى وزارة التعليم نجاحاً جعله بالإجماع أقدر وزراء التعليم فى أوروبا فى وقته. وهو الذى تولى إصلاح التعليم فى فرنسا بعد ثورة الطلاب فى باريس سنة ١٩٦٨ م. والتقارير الذى قدمه إلى الجمعية الوطنية فى فرنسا لإصلاح التعليم الجامعى أصبح وثيقة دولية، فقد اعتبرته اليونسكو وثيقة تاريخية عالمية، وطبعته من أموالها بست لغات.

وما دمت قد قلت هذا فليأذن سيدى وزير الزراعة فى كلمة أخرى تثقل صدرى، وأحب أن أقولها لأستريح، وهى ليست للعزيز الدكتور يوسف والى وحده بل هى لكل السادة الوزراء وهى: ما الداعى للفرق البالغ فى التحدث إلى الجماهير والاجتهاد فى استرضائها؟ فى الصور التى ينقلونها لنا فى التلفاز من مجلس الشعب ويسمونها صوراً حية - وهى فى الحقيقة بعيدة جداً عن الحياة - أسمع الدكتور والى يدافع عن إهمال الفلاحين وتضييعهم للأرض والمحاصيل، وهو يقول إن أرضنا الزراعية تتناقص، ولكن المحاصيل تزداد، ومن الممكن أن تزيد المحاصيل، ولكن هذه الزيادة لا يرجع الفضل فيها للفلاحين. إنها ترجع إلى أصناف السماد الجديدة وإلى مبتكرات من البذور والتقاوى وأساليب فنية فى الزراعة تصلنا من الخارج، وهى ترجع أيضاً إلى اجتهاد عدد كبير من رجال وزارة الزراعة فى الأرياف فى القيام بعملهم، لولا هذه المستحدثات والبتكرات التى يكتشفها لنا الآخرون لما أنتجنا حتى الثلاثين فى المائة من غذائنا، فلماذا لا نوجه اللوم إلى الفلاحين، ونقول لهم إنهم لم يعودوا جدירים بأجدادهم الفلاحين المخلصين النجريين الذين لم يطعموا مصر وحدها بل أطعموا مصر والحجاز وشمال السودان دائماً، وبلاد الشام أحياناً، وإلى أواخر الثلاثينات كان

المستوردون البريطانيون يفضلون محاصيل مصر من القمح والذرة والشعير والفول على غيرها من حاصلات الدنيا، هذا بالإضافة إلى القطن والكتان والبصل والثوم والخيار والبرتقال وكانت محاصيل مصر منها أحسن ما فى الدنيا. هذا المجد الزراعى ضاع معظمه فلماذا لا نواجه الفلاحين بهذه الحقيقة ولا نلومهم أشد اللوم على ذلك التقصير العيب فى حق بلادهم؟ لقد استمعت إلى برنامج عن الاقتصاد المصرى فى إذاعة لندن العربية، وقد اشترك فى هذا البرنامج نفر من المسئولين من بينهم وزير الزراعة، وفى الدقائق الثلاث التى تكلمها تحدث عن التوجيه الذى يتلقاه، وعن الفلاح الذى يشقى فى خدمة الأرض فقلت له - فيما بينى وبين نفسى - لماذا يا سيدى ولا أحد يلزمك بهذا الكلام؟ إننا جميعا نعرف أنك من أعظم وزراء الزراعة الذين عرفناهم، ونحن ننتظر دائماً أن تعطينا فى أحاديثك من علمك وخبرتك ونريد أن نراك حاسماً مع الفلاحين.

إنك أستاذ جامعى مشغول بالتدريس مثلنا. ونحن - جماعة المشتغلين بالتعليم - يكون نجاحنا أكثر مع الحزم والشدة مع الطلاب، والطالب نفسه يحب أستاذه القوى الحازم الذى يحكم الفصل، ويفرض النظام فى قاعات التدريس ويفرق بين الطالب الجاد والطالب الهازل، وفى ذات مرة وجدت بعد أن صححت أوراق الامتحان أن الراسبين يقاربون الثمانين فى المائة، ورئيس الكونترول طلب إلى أن أعيد النظر فى أوراق الإجابة قبل تثبيت النتيجة فى الكشوف فقلت له: - لا أستطيع أيها العزيز أن أزيد طالبا درجة واحدة، لقد راجعت الأوراق ثلاث مرات، وأعدت النظر فى ورقة الأسئلة أكثر من مرة، واسترجعت فى خاطرى كل ما فعلته مع الطلاب هذا العام، وأرقت فى الليل أفكر فى شأن هؤلاء الطلاب الذين رسبوا واقتنعت بأنه لا يمكن أن أزيد واحداً منهم درجة، قال: ولكن هذه النتيجة تمس سمعتك، إذا كيف يرسب من طلابك ثمانون فى المائة؟ ثم إن هذه الشدة حرام والطلاب سيكروهونك.

– كما قلت لك يا أختي، هذه هي كلمتي الأخيرة في هذا الامتحان. إن الحرام فعلاً هو أن نرفق بالطالب العايب الضعيف على حساب الطالب الجاد القوي. إن البلد يعتمد في حياته وتقدمه على الجادين المجتهدين، فلا نظلمهم ونسوى بهم الضعفاء.

وظهرت النتيجة وغضب الطلاب والتف بعضهم حولي لائمين. فقلت لهم: إننى فى القاهرة هذا الصيف كله، وأنا مستعد أن أعطى الراسبين درساً أسبوعياً أراجع معهم فيه المقرر كله وأشرح لهم ما خفى عليهم، وأنا مستعد لأن أدفع لكل طالب يريد نصف ثمن كتاب هاملتون يريد فى العصور الوسطى وكان عدد الراسبين ٢٢ طالباً.

وكان هذا من أمتع الأصياف التى مرت بى. كنت مع الطلاب فى الجامعة مرتين فى الأسبوع، وراجعت معهم مادتى ومادتين أخريين، وطالعنا مع الكتب الإنجليزية المعتمدة فى تلك المواد، فتخلص الكثيرون منهم من عقدة الخوف من اللغة الإنجليزية بسبب ضعفهم فيها. ونجح كل الطلاب فى الدور الثانى عدا اثنين، وأصبح أولئك الطلاب أصدقاء أعزاء لى سنوات طويلة. ولا ألقى منهم واحداً إلى يومنا هذا إلا ذكرنا هذه الأيام، وكلهم نجحوا فى الحياة وواحد منهم أصبح وزيراً مرتين. وكلما التقينا ذكرنا ذلك الصيف وكيف سعدنا فيه.

إن الناس فى بلدنا يكونون من قديم الزمان احتراماً كبيراً للوزراء وكبار المسؤولين، وهذا تقليد قومى عندنا. والوزير القوي الحاسم الصادق عندهم أب وقائد وقُدوة، وهم يحبونه ألف مرة أكثر مما يحبون الوزير الرفيق المجامل لهم، فواجهوهم أيها الناس بالحقائق، وعاملوهم بالحزم، إن من أكبر الخلال التى تعجبني فى الرئيس مبارك أنه يواجهنا بالحقائق فى خطبه وأحاديثه، والناس يزداد حبهم له وتمسكهم به عندما يحسون أن قيادتهم بيد رئيس قوى حازم عارف بما يحاولون إخفاءه عنه من الحقائق والعيوب وما زالت كلماته تتردد فى سمعى عندما قال لنا فى إحدى خطبه

الأولى إنه لا يريد المديح ولا يحبه ولا يجوز عليه الزيف أو الخداع أو كلام الملئق، إنه رجل جاد، وقد قبل أن يتولى الرياسة ليعمل ويخدم وطنه، ولا وقت لديه لما سوى ذلك.

وأحب أن أقول لنفسي وسواى من عامة الشعب كباراً وصغاراً نساء ورجالاً أننا فى نهاية المطاف المسئولون ونحن الذين يهملهم الأمر، وفى عالمنا الراهن لم يعد هناك مسئول وغير مسئول. فكل المواطنين مسئولون، والعالم من حولنا دخل من سنوات فى مرحلة تطور ونهوض قوميين عالميين لم يسبق لهما مثيل، وهناك يقظة عنيفة وواسعة المدى فى كل الدنيا، وانظر مثلاً لبلاد كانت فى سبات أو تدهور إلى حين قريب تجدها قد استيقظت وفتحت عينيها وسرى فى كيانها وعى جديد، وانظر مثلاً إلى ما يجرى فى اليونان اليوم لقد كانت اليونان دائماً سابقة علينا فى عالم الصناعة والتجارة والملاحة البحرية، ولكن الوعى القومى الذى يشمل اليونان اليوم خليق بأن يكون درساً لنا. واندرياس باباندرىو زعيم الحزب الاشتراكى الذى فاز بالانتخاب أخيراً، وكسب فترة حكم ثانية يقود البلاد فى طريق نهوض قومى واسع، والناس أيدوه لأنه ينادى بإخراج اليونان من وصاية الولايات المتحدة، والناس تخلوا عن خصمه قنستانتين ميتزوتاكيس الموالى للغرب لأنه سائر فى أعقاب الولايات المتحدة، وفى إحدى خطب باباندرىو الأخيرة فى مدينة باتراس قال إن الشعب لا بد أن يؤيده فى القضاء على الحزب الشيوعى الذى يفسد الحياة السياسية اليونانية - كما قال - ويتصور هذا الحزب أنه سيكسب أصواتاً تمكنه من الاستمرار فى التحكم فى حكومة اليونان لأنه يحصل دائماً على ما بين عشرين وثلاثين مقعداً فى البرلمان تجعله القوة المرجحة فى الميدان السياسى - فى انتخابات ٢ يونيو ١٩٨٥م الحالى تبين أن الناس استجابوا له، وخرج الحزب الشيوعى بهزيمة ساحقة أخرجته من ميدان التحكم فى حكومة البلاد، ونحن هنا يهملنا جداً أن ندرس سياسة أندرياس باباندرىو

تهمنا كذلك الروح القومية التي أيقظته، وخلال السنوات الأربع الماضية قفزت الصناعة في اليونان قفزة واسعة وتأصلت في البلد صناعات الحديد والصلب والموتورات والماكينات بشتى أنواعها، والدين اليونانى هبط إلى أربعة آلاف مليون دولار، والسياحة حلقت وجلبت للبلاد خمسة آلاف مليون دولار، والقرى اليونانية أصبحت كلها منتجعات سياحية، وأثينا تتألق اليوم بجمال يجعلها فى مستوى باريس نظاما ونظافة.

وهذا كلام أرجو ألا يقرأه سيدنا وزير السياحة لأنه عندما يريد أن يعلل خيبة السياحة المصرية فى عهده وعهود من سبقوه يقول إن أزمة السياحة المصرية جزء من أزمة السياحة العالمية، كأن سيادته لا يعلم أن حجم السياحة العالمية قد تضاعف مرات خلال السنوات العشر الماضية، والولايات المتحدة وحدها أرسلت إلى إنجلترا فى الصيف الماضى ستين مليون سائح أنفقوا فيها نحو مائة ألف مليون دولار، وفرنسا على العادة اجتذبت عشرات الملايين، وأسبانيا استعادت مركزها فى عالم السياحة بعد أن ظن الناس أن السياحة الأسبانية ستخسر مع الاشتراكيين أما اليونان وبلغاريا ورومانيا والنمسا ويوغوسلافيا. فالسياحة تكون خمس دخلها القومى أما نحن فإن السياحة عندنا فى حالة غيبوبة، وكل سائح يزور مصر يقسم ألا يزورها مرة أخرى ومكاتب السياحة الأوروبية تقول لكل قادم إلى مصر إنها غير مسئولة عما سيجرى له إلى بلد لا يستطيع السير فيه من فندقه بضع مئات من الأمتار - إلى المتحف المصرى؟ وفى منطقة الهرم يجد نفسه فريسة جماعات التراجمة والجمالة وأصحاب الخيول المتحصنين فى قلعة نزلة السمان، ومكاتب السياحة مقاه وكافيتريات للمرشدين والمفتشين السياحيين، وليس فيها نشرة أو خريطة أو دليل سياحة، ولا يفكر سائح فى زيارتها لأنه لن يجد فيها من يجيبه عن سؤال، وكل ذلك بفضل قادة الوزارة المسئولين الذين يهتمهم الأمر.

لهذا فإننى أوجه هذا الكلام إلينا - نحن غير المسئولين لأن الأوان قد آن لتعرف أننا نحن غير المسئولين هم الذين ينبغى أن يعيننا الأمر فعلا،

وفى قطاعات واسعة من الإدارة تحس، وكأن الإدارة المصرية تدهورت تدهوراً مخيفاً، حتى فيما يتعلق بالبياديين التى لا ينبغى أن تهتمها الإدارة لأنها مورد إيراد رئيسى للبلد - أصبح صالح البلد لا يهمها فمصلحة الضرائب تدهورت تدهوراً لا يصدق خلال السنوات الخمس الأخيرة، فقد كانت فى العادة ترسل إلينا ربطاً مؤقتاً للمطلوب منا بعد تقديم الإقرارات بثلاثة شهور أو أربعة، أما خلال الأعوام الثلاثة الماضية فأنت تقدم الإقرار ثم تنتظر سنتين أو ثلاثاً حتى يستدعوك، وهم عندما يفعلون ذلك يرسلون لك خطاباً زريماً لا يقرأ لسوء كتابته وطباعته والكتابة فيه نبش فراخ، والأرقام تشبه الخط المسمارى، والخطاب يصاغ فى العادة فى عبارات تهديد تتوعدك بالعقاب والغرامة والحجز إذا لم تسارع إليهم كأنك مجرم هربان عثر عليه البوليس، فأنا مثلاً قدمت إقراراتى عن سنوات ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ فى مواعيدها، ولكن هذا الخطاب المهين لم يصلنى بعد عن أى من هذه السنوات وليس أمامى إلا أن أذهب إليهم طائعا مختاراً وأرجوهم أن يحاسبونى.

وهذا يذكرنى بحكاية خروف اشتراه رجل قبل عيد الأضحى بفترة وجاء يوم العيد وانتصف النهار ولم يسأل أحد عن الخروف، ولما كان انتظار البلاء شراً من وقوعه فقد ضاق صدر الخروف وتعب من الانتظار فذهب إلى باب البيت ودقه وعندما فتحوا له قال:

- شوفوا اسمعوا أنا ليس عندى وقت لهذا اللعب، العيد وأتى فما هذا الإهمال؟ وإلى متى انتظروا أرجوكم أن تخلصوا شغلكم معى إننى خروف عيد محترم ووظيفة خروف العيد المحترم مثلاً هى أن يموت بالسكين صباح أول أيام العيد، وإذا أنتم لم تقوموا بواجبكم ذهبت إلى أى بيت من هذه فقد يرافوان بى ويخلصوننى من عذاب الانتظار.

وهذا البلد أيها الأخوة بلدنا وكل خير يصيبه يعود علينا نحن، وهذه حقيقة تغيب عن الكثيرين جداً ممن يهمهم الأمر، وفى ذات مرة ركبت

القطار إلى الإسكندرية ووصلنا إلى دمنهور، وصاحبنا الكومسارى لم يشرفنا بطلعته البهية ثم دخل علينا فوجد صديقا من أصدقائه فأخذه بالأحضان، وجلس إلى جواره ووضع الحقيبة على الأرض وهات يا سلامات وكمان سلامات، وفينك يا راجل ومر الفراش فطلب قهوة لنفسه ولصاحبه وكدنا نصل إلى الإسكندرية وضاق صدرى فنهضت إليه وقلت:

- أرجوك يا أخانا أن تقوم بواجبك وتفتش هذه العربة ثم تمضى إلى العربة التى تليها فقد كدنا ندخل الاسكندرية.

والرجل تعجب من أمرى وقال فى استياء بالغ.

- ومالك أنت ومالى يا حضرة هل أنت رئيسى هذا عملى، وأنا مسئول عنه أفتش أو لا أفتش أنا حر.

- لا يا سيدى أنت لست حرا أنت مفتش تذاكر مؤتمن على حقوق الدولة وعليك أن تنهض وتفتش هذه العربة، وبقيّة العربات قبل أن نصل إلى الإسكندرية.

- وإذا لم أفعل فما عساك قادرا على فعله؟

- سأقودك مع أصدقائى هؤلاء إلى بوليس محطة الإسكندرية ونوجه إليك تهمة تبديد مال الدولة والتفريط فى المال العام.

- يا سلام ثلاثة بالله العظيم ما أنا منقول من مقعدى هذا وسأتناول قهوتى مع قريبى واعملوا ما فى يدكم.

وعندما وصلنا الإسكندرية لم ننزل فى محطة سيدى جابر وفى محطة الإسكندرية رفض الرجل الذهاب معنا إلى مركز بوليس المحطة وافتعلنا معه مشاجرة وناديننا بوليس المحطة فأقبل شاويش يصلح بيننا ويفضها بالحسنى والطيب أحسن.

- ولكن يا سيدى الشاويش هذا رجل مبدد لمال الدولة ومتلاعب فى المال العام.

- وماذا فعل؟

- أحمل التفتيش على التذاكر فى عربتنا، وهى السابعة فى القطار، وترك ست عربات لم يفتشها.

- وهل أنتم رؤسائه؟

- لا يا سيدى نحن مواطنون عاديون، ونحن من أبناء الشعب، وواجبنا الحفاظ على المال العام لأنه مالنا.

- ما لكم؟

- وما لك أنت أيضا

- مالى؟ أنا ليس لى عند الحكومة مال قبضت مرتبى عن هذا الشهر، وبيننا وبين الشهر القادم تسعة أيام.

- يا سيدى الشاويش أرجو أن تفهم عنى أن مال الدولة مال الشعب، والشعب مسئول عن المال العام مثله فى ذلك مثل الموظفين.

- يا أخوانا بلاش شوشرة ووجع دماغ إحنا ناقصين؟

- أرجو يا حضرة الشاويش أن تأتى معنا بهذا الرجل إلى نقطة بوليس المحطة.

- تريدون منى أن أقبض على رجل طيب صاحب عيال غلبان وشقيان واقتاده إلى نقطة البوليس دون ذنب جناه؟

ثم نظر إلى الرجل، وقال اتفضل أنت يا سعيد أفندى روح لأولادك دول ناس قاضيين يريدون أن يتسلوا على الغلابة أمثالنا، وسعيد أفندى نظر إلينا بكل ازدراء ومضى لثأنه.

وذهبنا إلى نقطة البوليس فوجدنا ضابطين شابيين وثلاثة عساكر وحكيينا الحكاية، وطلبنا تحرير محضر استدعاء وتحقيق مع هذا الرجل.

- وما اسم هذا الرجل؟

- سعيد افندى.

- سعيد إيه نريد الاسم الثلاثى.

- يا سيدى إن اسم هذا الرجل الثلاثى عند المصلحة، فهو مفتش القطار رقم كذا الذى بارح القاهرة فى الحادية عشرة والربع صباح هذا اليوم إلى الإسكندرية.

- يا حضرات ماحدث فاضى للكلام العجيب ده يا عسكرى هات لحضراتهم ورقة يكتبون فيها ما يريدون.

- وماذا ستفعل بورقتنا هذه؟ نرجوك أن تحولها إلى المسئولين.

- لن أفعل سأكتب عليها بحفظ .

- ولماذا لا تفعل؟ ألا يهيك المال العام؟ هل نترك هذا الرجل يختلسه؟

- إننى لا أفهم كيف تتهمون موظفا عاما بالاختلاس!!

ورأينا أنه لا فائدة. فنحن فى واد، وهذا الخلق كله فى واد. ونحن الذين يهمنى الأمر ضحكة فى وسط ناس لا يفهمون عنا لأن الأمر لا يهمهم.

وقبل أن نتفرق ويذهب كل منا إلى داره اتفقنا على أن نجتمع بعد

عودتنا إلى القاهرة لتدارس هذا الموضوع الخطير. موضوع البحث عمى

يهمهم الأمر فى هذا البلد حتى لم يعد بالفعل مسئول محدد عن مصالح

البلاد والعباد. ومادام المسئولون غير مسئولين، فلا بد أن يتحرك غير

المسئولين ويقوموا بواجبات المسئولين. ومن لا يهمهم الأمر ينبغى أن يكونوا

هم من يهمهم الأمر.

وقال واحد منا:

- الموضوع أيها السادة موضوع وعى والمسئول عن الوعى هو وزير

الإعلام.

- عندى فكرة نذهب لمقابلة السيد وزير الإعلام ونشرح له الأمر، ونرجوه أن ينظم حملة توعية.

وقال واحد منا مشهور بيننا بالياس التام من أى إصلاح أو تحسن: إن وزير الإعلام إذا تفضل وقابلكم لن يهتم بشيء مما تقولونه، ولن يتحرك خطوة لأنه لا يتحرك إلا إذا جاءه توجيه من فوق.. وعمله الرئيسى هو إذاعة البيان الأسبوعى عن جلسة مجلس الوزراء وما تم فيها، ولا أقصد وزير الإعلام الحالى لأن كل وزراء الإعلام من يوم كانت عندنا وزارة إعلام يسيرون على هذا التقليد، والإعلام عندهم هو الإعلام عن الدولة والدعاية لها، وفى عهد عبد الناصر والسادات كان الإعلام مقتصرًا على رئيس الدول، وفى أيام عبد الناصر خاصة كان المفروض والمسلم به فى أجهزة الاعلام جميعا أنه لا يوجد فى هذا البلد إلا إنسان واحد والباقي مواش، ومن يرفض أن يعترف قولًا وعملاً أنه ليس خروفاً أو ثورا أو بقرة لا بد أن تتخذ ضده الإجراءات لأنه مواطن خارج على النظام، وفى أيام السادات كانت هناك مغنية تلقى علينا كل يوم أغنية تقول: «يا حبيبنا يا سادات يا رئيسنا يا سادات» لأن عشق الرئيس كان فريضة على كل مواطن.

قلت: على أى حال فالأمر خطير جداً، ومادامت الأجهزة الادارية فى حالة إغماء، فلا بد أن نقوم نحن بخدمة هذا البلد، لأنه بلد عظيم ومهم، ويدور فى رأسى الآن ضرورة عقد مؤتمر موضوعه: من الذى يهمله الأمر؟! لأن الدنيا كلها دخلت فى حركة وعى قومى، ولا بد أن نسارع بدخول هذه الحركة.. وإلا فالعواقب وخيمة.

لم نَعُدْ بعدُ أطفالاً

قرأت الخبر التالي فى العدد ٤٥٩ (الأحد ١١ أغسطس ١٩٨٥م) من مجلتنا العزيزة «أكتوبر»: «وافق كمال حسن على رئيس الوزراء على خطة جديدة لتطوير قصر المنتزه وتحويل حدائقه وشواطئه إلى منطقة سياحية عالمية. صرح بذلك محمود أمين عبد الحافظ وزير السياحة الأسبق ورئيس مجلس إدارة المنتزه. وقال إن الخطة التى اعتمدها رئيس الوزراء تتضمن إقامة قرية سياحية من الموتيلات والشاليهات وبحيرات صناعية تستمد مياهها من البحر. وتشمل دار عرض رفيعة المستوى لاستقبال فرق الباليه والأوبرات ، والفرق الاستعراضية العالمية ومتحفا للمركبات الملكية. وأضاف د. عبد الحافظ إن الخطة تحرص على عدم المساس بالأشجار أو المساحات الخضراء».

إلى هنا ينتهى هذا الخبر العجيب الذى كتبه زميلنا سلطان محمود.

وقد قرأت هذا الخبر وأنا جالس فى حديقة المنتزه على عادتى عندما أكون فى الإسكندرية ، وأنا من عشاق الخضرة والحدائق والأشجار.

وتركت المجلة وتلفت حولي وقلت فى نفسى : على من يضحك مجلس إدارة المنتزه؟ على نفسه أم علينا؟

ذلك أننى كنت قبل أن أقرأه أتلفت حولي وأتحسر على قصر المنتزه وكل ما فى قصر المنتزه.

فإن ثلاثة أرباع الخضرة قد زالت. ماتت تحت الأقدام. والأولاد والشبان يلعبون الكرة والراكيت على الخضرة ، وفى كل مكان حتى تحت الأشجار.

* أثناء كتابة هذه المقالة كان كمال حسن على تقلد رئاسة الوزارة وقد نشرت هذه المقالة فى ٨ سبتمبر ١٩٨٥ م.

وعلى طول ما جلست فى هذه الحديقة لم أر فيها زراعياً من الذين يسمونهم مهندسين زراعيين ولا فكرة لديهم عن الهندسة الزراعية بل لم أر ضابطاً أو عسكرياً بوليس يحرس هذه الحديقة التى كانت رائعة ويحميها من البلاء والتخريب.

ليس هناك إلا البستانيون المساكين يروون الزرع الذى مات معظمه وقلوبهم تتقطع حشرات لأنهم يعرفون أنهم يروون الموت ، وأن عملهم ضائع فى الهواء ، وواحد منهم كبير السن من الجيل الذى كان هنا أيام كانت هذه الحدائق حدائق ملوكية لا يزال يهز رأسه ويتحسر. لقد زرتها سنة ١٩٤٩م بدعوة من صديق لى ممن كانوا يعملون فى القصور، كانت جنة ، الخضرة كانت كاملة ، وارتفاع النجيل كان لا يقل عن عشرة سنتيمترات ، وأحواض الزهر كانت متعة وكان هناك مهندس بساتين إيطالى الأصل يعرف كل زهرة باسمها وتاريخها ، وكان هناك نحو ثلاثين حوضاً من أصناف الورد الجورى والفرنسى والإنجليزى ألوانها بديعة تملأ القلب بهجة. وكان هذا المهندس يكسب مسابقات ورود وزهور عالمية باسم قصر المنتزه واسم حدائق المنتزه كان اسماً عالمياً. وفى الدنيا اليوم نحو مائة وسبعين نوعاً من الورد منها أربعة طوروها هنا فى حدائق المنتزه وحدائق رأس التين ، وهى الروزا الكساندرينا والرويال ديب رد (بكسر الراء) وردة النسمة الاسكندرانية (اليكاسنديننا بريز) ، وملكة المتوسط (ميديترايانا كوين) واثنتان من هذه الورد رأيتهما فى معرض الورد العالمى فى مدريد ويسمونه معرض المليون وردة وزرعتهما فى حديقة معهدنا هناك ومازالت واحدة منهما زاهرة إلى اليوم وقد سقيتها بنفسى فى العام الماضى.

واقترب منى البستانى الطيب العجوز ، وقال يسرى عن نفسه كما هى عادته معى كل يوم :

– خلاص يا أخى كل شىء قد انتهى ومات أو فى طريقه إلى الموت منذ أن ذهب الملك وهجم الغزاة على هذا القصر الجميل وبساتينه ، بدا كل

شيء يتلاشى برضه الملوك لها فائدة يا جدعان. والحديقة التي قالوا إنها ستتحول إلى منتزه شعبي زاهر تقاسمتها فئتان من الدخلاء أصحاب النفوذ الذين انشأوا الكابينات على البحر واحتكروها وجموع الأولاد والشباب وعائلاتهم من عامة الناس وهم لا يأتون هنا للاستمتاع بالزهر أو الجمال بل لكي يفرشوا الملايات على الخضرة ويضعوا حلل المحشى والملوخية والسلك وتلال الخبز ، ثم يأكلون ويتركون الحديقة من بعدهم مزبلة ، حتى صناديق الزباله لعب بها أولادهم. وبعضها أخذوه معهم لكي يضعوا فيه بقايا الطعام ، بينما أولادهم وغيرهم من الشباب يلعبون الكرة والراكيت ، ويخربون كل شيء. وهنا قسم مخصص للعب ، وهنا عشرات اللافتات تمنع لعب الكرة في هذه المنطقة وبعضها لطيف الأسلوب ، يقول: للتمتع بجمال الطبيعة حافظوا على نظافة الحدائق ، والناس على العادة إما لا يقرأون هذه اللافتات وإما يقرأونها ويحسبون إنها موجهة إلى غيرهم لأنهم لم يأتوا إلى هنا للتمتع بجمال الطبيعة بل لتخريبها ، وهذا جزء من الثقافة القومية عندنا اليوم ، وهذا بالضبط ما يعلمونهم إياه في المدارس ، وقد رأيت في حى مصر القديمة حوش مدرسة إعدادية أو ثانوية ، الحوش مساحته لا تزيد على ٤٠٠ متر ، وعدد الطلبة فوق الألف وخمسمائة ، وهؤلاء جميعا يتفسحون هنا ! إنهم لا يدوسون الزرع فقط بل يدوس بعضهم بعضا ، وبقية الحوش أخذوه وبنوا فيه فصولا ، والمدرسة كلها أصبحت مثل مزرعة دواجن ، والطلبة كأنهم فراخ ، كل منها يظل برأسه من فتحة القنص طلباً لشيء من الهواء. فراخ تعيسة ، ولكنها لا تبيض لأنها فراخ عواقر.

وقلت للبستاني الطيب المجوز:

- أليس هنا فنيون زراعيون..؟

فابتسم الرجل ابتسامة مريرة وقال: مهندسون زراعيون؟ هنا يا سيدى إدارة زراعية كاملة على رأسها مدير عام يساعده جيش من الزراعيين ،

ولكنهم لا يتنازلون بالمرور هنا أبداً ، إنهم هناك فى مبنى الإدارة أربعة أدوار تغص بالموظفين الذين يقال إنهم فنيون ولكننا لا نرى منهم أحداً. إنهم إما فى المكاتب أو جالسون مع أقاربهم على الشاطئ. أيام الملك لم يكن هنا إلا أربعة مهندسى بساتين ، وكانوا طوال النهار يجربون نواحي البساتين على الموتوسيكلات ، ويرعون الزهور زهرة زهرة ، والورود وردة وردة والأشجار شجرة شجرة هؤلاء مضوا لحالهم عندما مضت أيام عز هذه الحديقة ، واليوم تجد كل موظف كبير فى الإسكندرية له ابن متخرج فى كلية زراعة أحقّه مهندساً زراعياً إما بالمتزّه أو رأس التين. والدنيا أصبحت سهيلة ومكان الأشجار زرّعنا موظفين يتربون ويسمنون هنا كما تسمن العجول ، والذى جرى لهذه الحديقة هو ما يجرى لكل روض يدوسه قطيع من البقر والشيران قلت: طب والبوليس؟ أليس هنا حرس يحرسون هذه البساتين؟

- حرس؟ يا سيدى لدينا هنا جيش من حرس البساتين على رأسهم ضابط عظيم برتبة لواء ، ولكن لا علاقة لهم بحراسة الزرع أو الشجر ، وبينما كنت أتحدث إلى الرجل سمعت أصوات السيرينات وأرتالا من السيارات تخطف فى شوارع البساتين والدنيا انقلبت وصفوف العسكر ظهرت - لا تدري من أين - واصطفت على جوانب الطرق حتى يمر الموكب الجليل ، ويقول البستاني:

- هذا هو عملهم أيها الأخ لا شأن لهم بالحديقة أو الخضرة أو الزهر أو الشجر بل وظيفتهم هذه الاستعراضات لكى يشعر المسئولون إنهم هناك وكلهم يقبضون مرتبات وأوفر تايم وبدل طبيعة عمل وعلاوات وحوافز. ليس هناك إلا نحن البستانيين الغلابة ، من الثامنة صباحا إلى الخامسة بعد الظهر علينا أن نرعى ونزرع ونكنس ونحرس وطوال النهار تبج أصواتنا مع جموع اللاعبين الذين يأتون إلى هذه البساتين لا لكى يستمتعوا بها بل ليخربوها.

وقلت فى نفسى: على من يضحك مجلس إدارة المنتزه؟ إن رئيسه كان من نحو عشرين سنة وزيراً: ينقلونه من التمرين إلى البلديات إلى السياحة وبعد ذلك عينوه محافظاً وزيراً ، وأخيراً انتهى به المطاف إلى رئاسة مجلس إدارة شركة المنتزه ولا بد أنه عبقرية لا تعوض فهم لا يستغنون عنه أبدا ، وسيادته يتقلب - حرفياً - طول عمره فى كبار الوظائف لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عن عبقريته.

ثم جاءت كارثة تسرب مياه المجارى إلى الشواطئ و كارثة تلوث المياه فى الإسكندرية. وأنا لن أتعرض هنا لتلك المصيبة بعدما أصبحت حديث الناس أجمعين ، وقد أحسن الكتابة فيها الزميل صلاح منتصر فى مقال حاسم نشر فى هذه المجلة من أسبوعين ، ولكنى - وأنا أتحدث هنا عن حكاية حدائق المنتزه التى يميننا مجلس الإدارة بتحويلها إلى منطقة سياحة عالمية فيها موتيلات وشاليهات وبحيرات صناعية تستمد مياهها من البحر (الملوث) ودار عرض رفيعة المستوى لاستقبال فرق الباليه والأوبرات والفرق الاستعراضية العالمية.. إلى آخر آخر هذه التهيؤات التى نعجب كيف تصدر عن مسئولين كبار ذوى خبرة طويلة ويعرفون الزير وغطاه ولا بد وأنا أتحدث فى ذلك الموضوع لابد أن أنقل الفقرة التالية من تحقيق صحفى عن كارثة التلوث فى الإسكندرية لأنها تتناول بالذات مصيبة تلوث شواطئ المنتزه التى لابد أن المسئولين عن المنتزه كانوا على علم بأمرها عندما تكلموا عن المصيف العالى والمسرح الرفيع المستوى وفرق الأوبرا العالمية (تصوروا) قال الزميل الصحفى علاء رفعت فى تحقيق فى الموضوع نشرته جريدة الأخبار فى ١٩/٨/٨٥ - الصفحة الثالثة: «كانت أول نقطة قامت للجنة بزيارتها - لجنة دراسة كارثة الصرف الصحى فى الإسكندرية - هى منطقة قصر المنتزه وبلاج عايدة بالتحديد ، وهناك اكتشفت اللجنة أن المسئولين عن الصرف الصحى بشرق المدينة قاموا بفتح المصب البحرى المجاور لسور قصر المنتزه بعد أن حدث كسر بخط الطرد الرئيسى لشارع

النبيوى المهندس بحى المنتزه والمندرة والرأس السوداء فى مياه شاطىء عايده الذى ظهر به التلوث الحاد ، واستمر التلوث فترة بفعل التيارات البحرية وليدق ناقوس الخطر ، وهناك كابينة فى شاطىء عايده تقوم بصرف مخلفاتها داخل البحر مباشرة ، الأمر الذى يجعل المنطقه التى تصرف فيها ملوثة ، ولقد زارت اللجنة مصب شاطىء المندرة ووقفت أمام فوهة المصب ، واتضح أن هذا المصب مغلق ، ولكن هناك روائح كريهة! وقد اعترف المصطافون لأعضاء اللجنة أن هذا المصب يقوم بقذف الخلفات ليلاً» إلى هنا ينتهى ما نقلته من جريدة الأخبار.

وأرجو ألا يقول لى أحد إن مجلس الإدارة الذى يعدنا بإنشاء مصيف عالمى فيه مسرح للأوبرات لم يكن على علم بكافة المواسير عندما تحدث إلينا عن عجائب مصيفه المرتقب ، ولا يجوز ألا يعلم ، وما الذى يجعل أمثال أولئك الرجال يتحدثون إلينا بهذا الأسلوب؟!

السبب هو: أنهم يحسبون أننا مازلنا بعد أطفالاً

وفى كل يوم تصريحات ووعود ، وفى كل يوم فيه أمل ونكسة وأشياء تملأ القلب حسرة ، لأن الكثيرين جدا من المسئولين لا يحترمون الناس ، ويحسبون أنهم - بصفتهم أصحاب مراكز كبيرة - لهم الحق فى أن يعتبرونا أطفالاً لا نعقل ولا نفهم ولا نذكر.

ويغيب عن هؤلاء جميعا أن هذا الشعب لم يكن فى يوم من الأيام - ولا يمكن - أن يكون طفلاً. إننا نرى كل شىء ونعرف كل شىء. بل نعرف من الحقائق أكثر بكثير مما يعرف عنها أولئك الذين يستهينون بمقولنا.

فى أوائل الستينات اشتد النزاع بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر حتى تعرضت البلاد لأسوأ الأضرار من جراء تنافس الاثنين على السلطان: وكان مما لجأ إليه عبد الناصر ليظهر أمام الناس بأنه يميل إلى الحرية ويتجه إلى استفتاء الناس فى أمور البلد أنه دعا إلى إنشاء لجنة

تأسيسية سماها لجنة حوار تتكون من أكثر من مائتي شخص أغلبهم من المثقفين. وهذه اللجنة انقسمت إلى لجان فرعية كانت تجتمع في مجلس الشعب. وعبد الناصر كان يحضر اجتماعات اللجان ويشترك في المناقشات متظاهراً بأنه ديمقراطي أصيل ، وانتهى الأمر بإصدار ما سموه ميثاق العمل القومي أو الميثاق. والميثاق نشر في الصحف ، والصحف هللت بأن عصرًا جديدًا في الحرية والنهوض القومي قد أطل على مصر بعد طول عذاب وانتظار. والميثاق طبع في كتيب ووزع على المدارس والجامعات ليدرسه الطلاب. واستدعوني من مدريد للنظر في ترجمته إلى الإسبانية كما قام غيري بالنظر في ترجمته إلى لغات أخرى حتى يذاع في الدنيا كلها.

وكان رئيس مجلس الشعب في تلك الأيام صديقًا قديمًا من أساتذة الجامعة سأكتفى بالإشارة إليه بحرفي ل.ش. وكنت مرة داخلًا إلى مجلس الشعب أثناء دراسة المجلس للميثاق إذ وقفت لي عربية هذا الرئيس العظيم وطولها عشرة أمتار ، ورئيس مجلس الشعب البجل يطل على من النافذة ويحييني ويدعوني إلى الركوب معه. وبعد تبادل التحايا دخلنا المجلس تحيط بنا صفوف الجنود والحراس والموظفين - لسيادته طبعًا لا لي - وأراد أن يريني عظيم ما يقوم به فطاف بي بقاعات المجلس وفيها لجان مجتمعة يتناقش فيها ناس ويتدارسون ، وسيادته يقول بكل فخر: هذه لجنة الشؤون الاقتصادية ، وتلك لجنة الشؤون الخارجية ، وهذه لجنة الزراعة وتلك لجنة المرافق أو التعليم. وبينما كان سيادته يفرجني على هذا المهرجان وينتقل بي من قاعة إلى قاعة يحيط به الحشم والسكرتاريون كنت أنا أشعر أنه يسخر مني. وشيء ما في قلبي كان يقول لي: هذا كله تهريج ولعب بالمقول ، والغرض من ذلك هو إيهامنا بأنهم يعملون شيئًا لصالح هذا الشعب. وكان سيادته ممثلًا بارعًا يعرف كيف يظهر بمظهر الجد الخالص تأكيدًا لما حسب أننى صدقته من إنه رئيس مجلس شعب حقيقي عظيم ، بل لم تكن في نفسى ذرة من التصديق بأنه كان هناك إذ ذاك مجلس نواب أو مجلس عفاريت أصلا. وانتهت الزيارة وخرجت وأنا

أتعجب من أمر هذا الرجل الذى يحسبني طفلا ويخاطبني - ويخاطب المواطنين جميعا - على أننا أطفال. ويتصور أنني أصدقه وعندما قصصت ما رأيت على بعض من كنت ألقى وجدتهم جميعا مثلى يفهمون كل شيء ، ويعرفون أن هذا كله ضحك على الذقون فيما عدا صحفى كان كبيرا جدا فى تلك الأيام وكانت لى به إذ ذاك صلة ، وكان صديقنا الدكتور ح. ف. يقول لنا إنه «البرين تراس» بتاع الراجل الكبير أى ذهنه المفكر. وهذا الصحفى كان يخاطبني معظماً لأمر الميثاق يحسبني طفلاً ، وكان يدبج المقالات العصماء يخاطب الناس فيها على أنهم أطفال.

وبعد سنوات قرأت فى ص ٢٠٩ و ٢١٠ من كتاب «البحث عن الذات» للرئيس السادات ما دلنى على أننا بالفعل لم نكن أطفالا ، وأن الأطفال حقا كانوا هم أصحاب الميثاق ومهزنته ، ولكنهم كانوا أطفالا أشرارا. وفى ذلك يقول السادات: «فقد كان الهدف من العملية كلها أن يظهر عبد الناصر بمظهر من يشارك الناس همومهم ويسعى إلى حل مشاكلهم ، ولذلك نجده يرحب بما استقر عليه رأى اللجنة بإصدار ما يسمى بالميثاق يحدد فيه خط الثورة وأهدافها وسياستها. فقد كان هجوم أعضاء اللجنة من المثقفين منصبا على عدم وجود أى منهج. وفعلا وضع الميثاق وتقدم به عبد الناصر إلى المؤتمر القومى الكبير الذى عقدناه. وقرأه مادة مادة ، وصدق عليه الحاضرون ، وحقق بعض الغرض من صدوره. فقد شُغل الناس بمحاولة استيعابه وتفهم النواحي الأيديولوجية التى كان يحتويها ، فى هذه الأثناء كان التنظيم السياسى موجودا ولكنه بالتعيين بالانتخاب فهو أعرج لا يملك من أمر نفسه الكثير ، لذلك نجده لا يقوى على أن يضع الميثاق موضع التنفيذ. لقد صدر الميثاق فعلا ، وأصبح يدرس فى منظمات الشباب والجامعات ولكن شيئا مما نص عليه لم ينفذ.

ومن سنتين كنت فى لندن وكان الوقت شتاء وزرت مكتبة الشروق وهى من مفاخر منشآتنا الثقافية يرجع الفضل فيها إلى صديقنا الناشر القدير الأستاذ المرحوم محمد المعلم وأخرج منها حاملاً بعض الكتب لأجد المطر

ينهمر واحتمى فى مدخل بيت ، وأنظر فإذا إلى يسارى إنسان ضئيل
حزين الوجه ينطق بالمرض وأحس أننى أعرف هذا الوجه وأسمع صاحب
الوجه يقول:

- فلان؟

والتفت فأرى صاحبنا رئيس مجلس الشعب العظيم صاحب الهيل
والهيلمان وقد فارقه هيله وجلاله ولم تبق منه إلا بقية صفراء سوداء
مرضاء، وأسمعه يقول ألا تعرفنى؟!!

ومن يغيب عند وجهك أيها العزيز. ماذا بك؟

مريض كما ترى يا صاحبى عندى الكبد والرئة وأمراض أخرى أتداوى
منها هنا..

وما الذى أوصلك إلى ما أنت عليه بعد العز والسلطان الذى كنت فيه؟

أكلونى لحما وألقوا بى عظماً.

قلت شفاك الله يا أخى وشفى كل مريض.

هذا كل جزائى منهم.

لا تؤاخذنى أيها العزيز إنه فى الحق لجزاء عادل ومعاد الله أن أتشفى
فى أحد ولكنى أقول لك والله يا أخى ما أخذوك لحما ولا ألقوك عظما
وإنما أنت كنت عظما طوال حياتك ثم اكتسيت اللحم من متاعب هذا
الشعب وآلامه ، كلكم كنتم تخدعون هذا الشعب وتحسبونه طفلا وهو والله
ليس بطفل إنه يعلم كل شيء ولكنه مسكين تعب من الكلام ، وانتهى به
الأمر إلى الاستسلام لقدره السيئ. ماذا كان ضرك يا أخى لو لزمتم وظيفتك
الجامعية وسرت فى طريقنا نحن المواطنين الذين نجد سعادتنا فى خدمة
هذا البلد بالقيام بواجبنا ، ولكنكم رجال خداع وسياسة. والطمع يجرى
فى دمائكم وأنتم والله كنتم شلة غرباء ولكننا كنا نعرفكم واحداً واحداً.
وشعب مثل شعبنا المصرى لم يولد بالأمس إنه شعب طويل العمر تعاقبت

عليه القرون والتجارب السوداء، وعرف من ظلم الفاطميين والماليك والأتراك والبكوات وهم الزمان ما يفيض به الكيل. ومثل هذا الشعب قد يسكت ولكنه لا يغفل ولا يستضعف ، وقطعا يجيء اليوم الذى يعرف كيف يأخذ حقه ممن غصبوه وظلموه.



والى بعض المسئولين ممن لا يزالون يصدقون ما تميل إليه نفوسهم من السخرية بعقول الناس وتفريحهم بالوعود أقول لهم: احترمونا أيها الناس لكى نعرف على الأقل أنكم تستحقون الوظائف التى تشغلونها وقد تعبنا تعباً شديداً ونريد أن نرتاح ولكن أصحابنا لا يرتاحون إلا على متاعب الناس ، والبستاني العجوز يهمس فى أذنى ويقول:

- أتعرف إنهم بنوا للسيد الرئيس - بدون علمه - فيلا هائلة هنا فى المنتزه وعندما علم بأمرها غضب عليهم ولاسهم لوماً شديداً ورفض أن يدخلها؟!!

وغلب على ظنى إن هذه إشاعة وأن هذا الخبر يشبه ما تحدث عنه صديقنا الأستاذ إبراهيم سعدة فى أخبار اليوم من الأقاصيص التى تختلق وتروى ويصدقها الناس وأقول له: يا أخى إن الناس معذورون إذ يصدقون مثل هذه الأخبار فإنهم نادراً ما يقولون لهم الحقائق وإنما يتركونهم فى شك وحيرة. وأنا شخصياً كنت أسمع قبل السد العالى أن كيلو واط الكهرباء سيكون بعد السد بخمسة مليمات والنتيجة أننى أدفع اليوم فى الشهر الواحد أربعين جنيهاً استهلاك كهرباء فى المتوسط كأن بيتى ورشة أو وابلور طاحون ، ولا أحد يشرح لى أو يفهمنى وكل ما يقولونه لك أدفع ثم قدم شكوى! وأن هذا هو الكومبيوتر والكومبيوتر فى علمهم لا يكذب وأنا أعرف أن الكومبيوتر لا يكذب ولكنه يضطرب فى أيدينا ويسىء الحساب، لأننا لا نعرف كيف نستعمله وأنا لهذا أدفع ولا أشكو لأننى أعرف أننى

إذا شكوت من الآن إلى يوم القيامة فلن يرد علىّ مسئول لأنهم جميعاً يعتبروننا أطفالاً! ومن سنتين انتهيت من محاسبة الضرائب وتبين أنّي دفعت أكثر من ٤٠٠ جنيه زيادة وقالوا لي!

- اكتب طلب استرداد وسيصلك المبلغ في بيتك بعد أسابيع والطلب كتبته ولكن المبلغ - وهو حقى - لم يصل خلال أسابيع أو سنوات والداخل في خزائن الدولة مفقود لأن الذين يقومون على هذه الخزائن لا ينظرون إلينا على أننا مواطنون مثلهم بل هم سادة ونحن رعايا. وواحد من أبناء أصدقائنا دفع الجمارك ألف جنيه زيادة وتبينوا خطأهم وطلبوا إليه أن يكتب طلب استرداد وكتب الطلب وانتظر فلم يصله شيء ، ومضى يجرى من مصلحة لمصلحة ومن موظف لموظف حتى أدركه اليأس فى النهاية وسأل العوض من الله.

أيها السادة ، والله ما نحن بأطفال ولا كنا قط أطفالاً ، إنما نحن ناس نرى كل شيء ونفهم كل شيء ولا نحب أولئك الذين يعتبروننا أطفالاً ، أجل نحن نعانى ونصبر ، وأى صبر مهما طال فله حدود ، واذكروا أمر صاحبنا الذى قضى نصف عمره يضحك علينا فكان عليه بعد ذلك أن يقضى نصف عمره الثانى يبكى على نفسه ويقول: أكلونى لحما ورمونى عظما ، وما كان عنده فى يوم من الأيام لحم ولا دم، إنما هو عمره كله عظم إلى أن يصبح فى يوم من الأيام رميماً.

الجهاز الحكومى .. والخراطيم «الدايية»*

دعانى بعض قراء مجلتنا «أكتوبر» إلى غداء. لم أكن أعرف من الداعين أحدا ، ولكن كانت تجمعنا منذ البداية تلك العاطفة القومية التى تجعل المهتمين بأمر هذا البلد يشعرون دائما بالقلق على المصير ، وكلما زاد حبك لوطنك زاد قلقك عليه ، وهذا هو الذى حرك هذه الجماعة من الأصدقاء إلى دعوتى ، فلم يكن الغرض فى الحقيقة أن يجدوا عندى حلولا لمشاكل تورقهم ، فلا أنا ولا غيرى. نملك مفاتيح للمعضلات أو أدوية للأسقام القومية ، وإنما الحلول تأتى من الحوار الجاد الهادئ ، والآراء عندما تتلاقى تجود وتنصلق وإذا هى لم تصل إلى حلول حاسمة أو واضحة فهى على الأقل تفتِّح جوانب المشاكل ، وهذه ولا شك خطوة لا بد منها للعثور على الحلول.

إن مشاكلنا القومية كثيرة جدا وهى معقدة بشكل غير معقول ، ونحن مع الأسف الشديد شعب لم يتعلم الحوار الهادئ ، ونادرا ما يخطر ببالنا أن نجتمع لنناقش مشكلة أو نجلس معا برغبة صادقة فى العثور على حلول ، وفى الغالب نحن أحد رجلين رجل يقف أمام المشكلة وينظر إليها مستسلما على أمل أن يحلها الله سبحانه أو فى انتظار أن تحل هى نفسها بنفسها ، أو رجل يعيش عمره كله فى انتظار المهدي المنتظر وأنا شخصا لست من أولئك الذين ينتظرون المهدي المنتظر ، وقد انتظرناه مرة وجاء وكان اسمه جمال عبد الناصر فحرمنا أن نفكر فى أى مهدي منتظر آخر ، وبلد مسكين مثل بلدنا كفاية عليه مهدي منتظر واحد.

ومن البداية قلت لأصحاب الدعوة ذلك ، حتى لا تكون المسألة مجرد غدوة ممتعة أو غير ممتعة ، وقد سررنى أن كان بينهم نائب من نواب

* نشرت هذه المقالة فى ١٥ سبتمبر ١٩٨٥ م.

الحزب الوطني ، وأنا شخصيا عضو في الحزب الوطني بل أنا عضو في إحدى لجانته وهي اللجنة العلمية التي أنشأها صديقنا العزيز الدكتور صبحي عبد الحكيم قبل أن يصبح رئيسا لمجلس الشورى ، ولكنني أقول الحق لم أحس في يوم من الأيام بهذا الحزب الوطني الذي أتنمى إليه ، طبعا أنا أقرأ عنه في الصحف وأرى بعض نوابه فيما يعرض علينا التلفزيون من صور حية من مجلس الشعب ، وهذا كل ما أعرفه عن الحزب ، وربما كانت الصلة الحقيقية الوحيدة بيني وبين هذا الحزب هو أن رئيسه هو السيد حسنى مبارك وهو فيما أعتقد الغطاء الذهبى الذى يضمن هذا الحزب فى نظر الجماهير.

أقول إننى سعدت فعلا أن يكون بين أصحاب الدعوة هذا النائب لأننى كنت أريد أن أستطلع رأيه ، أو أتعرف من خلال كلامه ملامح أيديولوجية حزب الأغلبية الذى يتولى مصائر بلادنا الآن ، ولم يكن الحزب موضوع الحوار أو أحد موضوعاته ، ولكننى فوجئت عندما سمعت هذا النائب يتكلم فقد بدا لى متشائما جدا وياثسا جدا ، بل هو أكثر شعورا بالحيرة والضياع منا ، ومن كلامه فهمت أن الصلة الوحيدة بينه وبين الحزب هى أنه عضو فى مجلس الشعب عن طريق انتسابه إلى الحزب.

وعلى هذا الغداء فى مطعم سمك فى أبى قير دار حديث طويل وكل من الحاضرين قص حكايات وتجارب وكان فيهم طبيبان ومحام ومهندس واثنان من المقاولين وصاحب مصنع نسيج وعضو مجلس إدارة أحد البنوك وهو النائب الوطنى ، وكلهم كما ترى مياسير وفيهم ثلاثة على الأقل أثرياء وعلى اختلاف المشارب ووجهات النظر فقد تجلنى لى بوضوح أن بلدنا يعانى عللا حقيقية عميقة متأصلة الجذور ، وحتى أكثر الناس تفاؤلا أو حماسة للنظام لا يستطيع أن ينكر أن البلد يعانى حالة ماليز Malaise ولا أجد ما أترجم به هذا اللفظ إلا بلفظ «قريفة» قريفة نعانيها كلنا على

درجات متفاوتة بحسب الإحساس أو المزاج والظروف والوضع الاقتصادى والاجتماعى والمسئولية والسن.



وقد سمعنا خلال هذه الجلسة حكايات كثيرة كلها تعين على تفهم طبيعة هذه الحالة المرضية التى نعانيها ، وهى فى الحقيقة ليست مرضا واحدا أو علة محددة ، ولكنها حالة مرضية عامة تشمل الكيان كله تستطيع أن تقول بلغة الأطباء إنها سيندروم أو ماليز سيندروم ، وإليك حكاية حكاها واحد من المقاولين أعتقد أنها تصور لنا هذا السيندروم ، الرجل مقاول طرق وإنشاءات مختلفة ومجال عمله فى إحدى المحافظات وقد رست عليه مناقصات إنشاء طرق وما يتبعها من الكبارى والأنفاق تصل جملة تكاليفها بحسب الأسعار التى رست عليها المناقصات فى حدود ثلاثى أرباع المليون ، ومن ثلاث سنوات والرجل يقدم المستخلصات أو المطالبات ولكن الدفع متوقف بعد دفعتين صغيرتين يصل مجموعهما إلى ٨٠ ألف جنيه ، والرجل عنده جرارات وجرافات وبولدوزرات وسحاجات وعربات نقل وأدوات كثيرة مكلفة ، وعنده عمال لهم أجور عالية وسائق البولدوزر الآن يصل أجره فى اليوم إلى ٢٠ جنيها وسائق الجرار بين ١٢ و١٥ جنيها ، ومال الرجل معطل ، وقبل السنة المالية كانوا يقولون له إنهم سيدفعون عند مجيء الاعتمادات الجديدة وإن المحافظة طلبت ثمانين مليون جنيه لسداد ديونها ووافقت الحكومة ، وعندما جاءت الاعتمادات تبين أن المحافظة لم يخصصها فى بند المنشآت إلا ١٩ مليون جنيه بينما ديونها تزيد على المائة لأن المحافظ الجديد عندما تولى توسع فى الإنشاء ، فأعلن عن طرق وترع ومصارف ومبان ومزارع سمكية وأشياء أخرى كثيرة ، ومجلس المحافظة لا يناقش سعادة المحافظ ، والمشروعات أعلنت والمقاولون تقدموا ورست العطاءات ، وبدأ العمل ، والمحافظ الهمام الذى لم يحسب حساب السداد نقل إلى وظيفة أكبر ، ورئيس الوزراء الذى تمت

الاتفاقات معه انتقل إلى رحمة الله والرئيس الجديد لا بد أن يدرس ومجلس الوزراء وما يتبعه من لجان أمامهم من المشروعات جبال.

وكلها مشروعات لم تدرس دراسة كافية ، وبعضها يعارض بعضها. كل هذا والدفع متعطل وأموال الرجل معطلة ، ولا أحد هناك يستطيع الحل ، وقد تعودنا في السنين الأخيرة عادة سيئة جدا ، وهى أن كل مشاكل أى مؤسسة أو هيئة أو محافظة أو وزارة لا يحلها إلا رئيس مجلس الإدارة أو المحافظ أو الوزير ، ولا أحد من بعده أو من دونه يحل أو يربط . وسعادة الوزير المحافظ يقول إنه غير مسئول عن هذه المشروعات وحتى لو كان مسئولا بصفته الوزير المحافظ فإنه خزانة المحافظة خاوية ، ويادوبك تكفى لرواتب الموظفين والعمال وأعدادهم فى زيادة.

ثم إن أدوات الرجل وماكيناته تتلف وتستهلك شيئا فشيئا ، والعمال متمردون وضبطهم عملية فى غاية العسر ، والخفير الذى تعينه يتبين لك بعد قليل أنه حرامى ، وتضبطه متلبسا ويحال إلى المحاكمة ولكنك لا تستطيع أن تفصله أو توقف مرتبه - أو علاواته وحوافزه - إلا بعد الفصل فى القضية ، وفى ذات مرة قال له ضابط المركز الذى طلب إليه أن يحرر محضرا لعامل لص :

- شوف يا سعادة البيه. لو أننا أحلنا إلى المحاكمة كل عامل يضبط متهما لكان علينا أن ندخل كل عمال المحافظة السجن ، ونحن فى هذا المركز ستة ضباط ومعنا اثنان من وكلاء النيابة ، ونحن لا نستطيع رفع رؤوسنا من كثرة المحاضر والتحقيقات ، ونصف المتهمين هاربون ولا بد من البحث عنهم ، والخفر هنا لا رجاء فيهم ، وأنت لا تدرى إن كانوا يبحثون عن الهاربين أو يساعدونهم على الهرب ، والشاويش يخرج فى مأمورية ويغيب ثلاثة أيام ثم يعود إليك ويقول لك إن المتهم بلعته الأرض. ونحن قد وضعنا أصابعنا فى الشق ، ومن رأى يا سعادة البيه أن تطلب العوض من الله فيما ضاع وتحافظ على الباقي. وهب أننا عثرنا على المتهم وحاكمناه وحبسناه فماذا ستستفيد من حبسه؟!

فماذا يفعل الإنسان أمام إدارة هذا حالها؟ بل هناك ما هو أعجب ، وهو أن هذه المحافظة فى عهد محافظها الهمام قررت إنشاء مزرعة سمكية ، وحكاية المزارع السمكية هذه أصبحت موضة ، لأن نهر النيل كله والبحرين الأحمر والمتوسط لا تقدم لنا موارد سمكية كافية. المهم أن المحافظة قررت إنشاء مزرعة سمكية ، وأقبل الفنيون إياهم وقاموا بتحديد مكان المزرعة وحفروا الأرض على مساحة عشرين فدانا ، وأنشأوا مباني للعمال ووضعوا مواسير ماء وملأوا الحفر بالماء وأتوا بزريعات السمك وألقوا بها فى الماء فمات معظمها. لماذا؟ لا أحد يدري. وهناك خمسة بيطريين وتسعة مهندسين زراعيين ولكن لا يوجد كيلو جرام واحد من السمك. وبعد أن أنفقوا نحو ثلاثة ملايين قرروا صرف النظر عن المزرعة السمكية ، والمحافظ الجديد قال: نردم الأرض ونعيدها أرضا زراعية ونزرعها أو نقيم فيها مزارع دواجن ، وكله بروتين! والأرض ردمت والمصاريف ضاعت ولم تزرع الأرض ولا أنشئت مزارع دواجن ، لأن وزارة الحكم المحلى أمرت بالتحقيق فى الموضوع والتحقيق أمامه سنوات والمقاولون الذين قاموا بالحفر وإنشاء المصارف والمباني والمواسير يقولون إنهم خسروا ملايين ، ولا أحد يدري إن كانوا خسروا ملايين أو كسبوا ملايين. على أية حال فإن ملفات هذه المزرعة التى تريد وزارة الحكم المحلى أن تحقق فيها وضعت فى جراج ، والجراج امتلأ بها إلى السقف وزاحمتها الفيران ، ومن سيقراً هذا كله ، ومن سيحقق فيه؟ والفنيون الذين اشتركوا فى العمل ذهب أربعة منهم إلى السعودية والإمارات وعمان ، وبعضهم انتقل إلى إدارات أخرى أو المجمعات الاستهلاكية أو شركات القطاع العام ، وأرض المزرعة تحولت بالفعل - إلى مزرعة فيران!



ونحن لم نتناول فى هذا الحديث - إلى الآن - موضوع السرقات والاختلاسات والرشاوى ، وهى وحدها داء وبيل ، ويكفى أن أقول لك - على عهدة مقال الطرق الذى حدثتك عنه ، وهو صادق فيما بدا لى - إن

المائة ألف جنيهه التى صرفوها له على حساب العمليات صرفوها على
دفعتين: واحدة أربعون ألفاً والثانية ستون ألفاً وإليك إجراءات الصرف
«الرسمية» التى اتبعت فى الحالتين:

بعد الجرى شهوراً بين ديوان المحافظة والإدارة المالية ووزارة الحكم
المحلى ووزارة المالية ووفق على صرف دفعة على الحساب قدرها أربعون
ألف جنيهه ، ولم يبق إلا أن يقوم الموظف المسئول فى الإدارة المالية بتحرير
الشيك ، والموظف المسئول هذا طال الجرى وراءه حتى أمكن «حصاره»
ومقابلته فى مبنى الإدارة ، وعند صرف الشيك الثانى وقدره ستون ألفاً
اتبع وقال إنه سيطلع على الملف والقرارات ويقوم بتحرير الشيك فى يوم
معين. وفى اليوم المعين تغيب عن المكتب بسبب المرض ، وسكرتيره أو
مساعدته نصح المقاول بأن يطل عليه فى منزله. «والراجل عيان ويصح
برضه تزوره» وذهب المقاول ودخل عليه فى غرفة نومه ، وسواء أكان
المرجل مريضاً أو غير مريض فقد كان فى السرير وعلى الكومودينو إلى
جواره علبة أدوية وحقن.

«ومش عارف جنيبى فيه إيه يا أخى! وغلبت حكما وأدوية ، والحكاية
دى بقى لها سنتين وكلفتنى مئات! ويقولون إن هذا المرض لا يعالجه إلا
طبيب جراح إنجليزى ، وهذه حكاية تتكلف ألوفاً ، ومن أين لمثلئى الآلاف
والحال كما ترى؟ وولدان وبنات فى الجامعات والرابع فى الثانوية العامة ،
وألفان من الجنيهات والله - ومالك على حلفان - ضاعت فى الدروس
الخصوصية وباختصار «عاوزين فلوس. ووالله لولا المرض!» وهذه القلوس
ألوف. ودخلنا فى الموضوع. والمريض نهض من فراشه وجلس على الكنبه
وأخذ إجازة من المرض. ومن هنا إلى هنا تم الاتفاق على ثلاثة آلاف من
الجنيهات تدفع فى المنزل قبل تسليم الشيك. والعمليه كلها ستتم فى
البيت بعيدا عن الموظفين والسعاة والدوشة ، والحيطان لها أذان. وفى يوم
التسليم والتسلم أصبحت الثلاثة آلاف ستة آلاف ، شىء لمدير الحسابات
وشىء للوكيل وشىء لفلان وشىء لعلان ، وسيداتك عارف والناس أعذار!

وبعد الدفع بالتعام والكمال ، وتناول الرجل الشيك بعد أن وقع فى عشرين موضعا ، تبين أن الحكومة أيضاً خصمت ألفين وخمسمائة وكسوراً دمتة ودفاعا ورسوم بلدية ورسوم هباب وبلاوى والأربعون فى النهاية أصبحت ثلاثين ، والحكومة إذا أعطتك خمسة مليمات خصمت مليمين دمتة ، ولو كانت لك عند الحكومة ليمونة فلايد أن يثقبها الموظف المختص بإبرة ويمص منها - ومن أعجب ما حدث أن المقاتل - بعد أن استلم بقايا نقوده وذهب إلى مبنى الإدارة المالية لشأن آخر هجم عليه جيش من الفراشين وكل واحد يطالب بالبقشيش.

الموظفون إجراءات مشابهة ولكن الخبث أصبح أكثر تعقيداً ، حقاً كانت هناك حكاية المرض والعملية التى لايد من إجرائها فى إنجلترا وأعضاء ألمانيا أصبحوا أكثر ، ولكن صاحبنا المقاتل تعلم من الدرس الماضى والخصومات من الشيك أصبحت ألفا ومائتى جنيه فحسب ، لأن الحكومة أنفت أشياء كثيرة ، والأتاوة فى مجموعها بلغت ستة آلاف من ستين ألفا والله الحمد ، وكان هناك موظف ثعلبان يزعم أنه يساعد فى إجراءات الصرف وقد تعب منه المقاتل «وقرف ، وبلغ مجموع ما أخذه ستعائة جنيه ، وبقيت له فيما قال أربعمائة يأخذها بعد صرف الشيك والمقاتل انتظره فى جراج الجرارات وعندما دخل انهال عليه عماله حتى أصبح كما يقول الأمريكيون بيضة مقلية مضروبة (سكرامبلداج)!



عندما أسمع أمثال هذه الحكايات أتصور الجهاز الحكومى فى هيئة رجل مطافئ يقف أمام حريق وفى يده خرطوم ولكن الماء لا يخرج من الخرطوم إلا فى هيئة سرسوب ضعيف لأن الخرطوم كله ثقوب والماء الذى يندفع من حنفية إطفاء الحريق يتبدد فى كل سنتيمتر ويصل إلى كل مكان إلا إلى الحريق ، والنار تشتعل ورجل المطافئ موجود وحنفية الحريق موجودة ولكن الماء لا يصل ، ويظهر أن كل خراطيم الجهاز الإدارى حافلة

بالثقوب وأحيانا تجد الثقوب ولا تجد الخرطوم. وفى ذات مرة - من سنوات طويلة - كنت وكيل مدرسة ابتدائية فى الأرياف بالانتداب وكنا نقدم وجبة الغداء للأولاد وكانت شكوى الأولاد من الطعام شديدة ومتصلة وكنت أنا أدهش لأن ضابط المدرسة كان يأتينى فى غرفتى بغداء أكثر من محترم ويقسم لى أن هذا هو نفس غداء الطلاب ولكنهم يا سعادة البيه نماردة مفاجيع لا يشبعون. وبحثت وسألت حتى علمت أن متعهد الأكل يأتى به كل يوم فى الساعة الخامسة صباحا ، كان يصلى الصبح حاضرا ثم يأتى بعربة التموين إلى المدرسة ويتسلمها منه ضابط المدرسة والسكرتير ورئيس الفراشين ولست متأكدا من أن هؤلاء السادة الثلاثة كانوا يصلون الفجر حاضرا قبل التسلم ، وكانت أنام فى الدرسة فصليت الفجر ونزلت إلى المطعم قبل وصول الموظفين والمتعهد ، وبعد ربع ساعة ظهر ضابط المدرسة والسكرتير وشيخ الفراشين ، ثم وصلت عربة التموين ومعها المتعهد ورأيت العجب : اللحم ربع المقرر ومن أرخص صنف والطماطم ثلث المطلوب وهى أردأ وأصغر طماطم رأيتها فى حياتى وكذلك الخضراوات والخبز فى حجم سندويتشات الفول فى أيامنا هذه ، ومن أغرب ما اكتشفت أن المتعهد عليه أن يأتى كل يوم بنصف صفيحة سمن بلدى وأربعة أقساط لبن كبيرة لأن المفروض أن كل ولد كان لابد أن يشرب كوب لبن فى اليوم ، وكان هذا أمرا من الدكتور السنهورى رحمه الله وكان وكيلنا لوزارة المعارف ، وهو الذى عيننى مدرسا ثم وكيلنا للمدرسة والصفيحة وصلت وكذلك أقساط اللبن ولكنها كلها مملوءة ماء ومن بعيد يقول المتعهد: يا دبوس أفندى جبت لك الديك الرومى والجوز واللوز اللى أنت طلبتهم.. يا عبد الملاك أفندى جبت لك الفخذة الضانى اللى طلبتها علشان عيد ميلاد الست هانم وتعيين البيه الوكيل أمه جوز فراخ وطبق غسل أبيض بالقشطة حار ونار فى جتته ! (والوكيل هو أنا).

وبرزت لهم من الظلام . وكنت أيامها لا يزيد وزنى على ٥٥ كيلو جراما ومع ذلك فقد ارتعبوا منى ارتعابا!! جعلتنى أشعر أننى عملاق

وناديت رئيس الفراشين ومن حضر منهم وضبطت الواقعة واتخذنا الإجراءات الحاسمة مع هؤلاء اللصوص وأيامها كان يمكنك فصل سكرتير مدرسة أو كاتب مدرسة مرتشيين ، وكان يمكنك أن تشطب متعهداً فاسداً كهذا من سجل المتعهدين وتغريمه مبلغاً طائلاً ، كان هناك قانون ونظام وحزم وعزم ولم تكن خراطيم الجهاز الحكومي قد امتلأت بالثقوب. كنت تستطيع إطفاء الحريق فى تلك الأيام أما اليوم وبالخراطيم الدايبة فلا تستطيع أن تطفى عود كبريت.



هل تذكرون ما كتبته العام الماضى عن خيبة نتائجنا فى أوليمبياد لوس أنجيليس؟ يومها نبهت على حريق خطر يهدد مستقبل تربية شبابنا الرياضية ، وقلت إن شباب مصر يحتاج إلى أيد جديدة تعنى به وإلى سياسة جديدة لرعاية مستقبل الرياضة البدنية عندنا ، ولكن أحدا لم يأخذ الموضوع مأخذ الجد ، والخراطيم الدايبة لم تطفى الحريق ، والتدهور زاد وعاد ، وفى العام الماضى على الأقل كسبنا بطولة أفريقية ، أما هذا العام فحتى هذه لم نصل إليها ودول المغرب الأربع نجحت فى تصفيات أفريقية أما نحن فقد غرقنا فى مياه البحر وانتكسنا ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل أقمنا بطولة دورى أفريقية فى أغسطس وخرجنا بنتيجة مخجلة ، ومصر التى كان ينبغى أن تكون أول دولة فى أفريقية خرجت السابعة ولم تفز إلا ببيدالية ذهبية واحدة وثلاث فضيات وثلاث برونزيات، بينما نيجيريا مثلاً خرجت بخمس وعشرين ميدالية منها ١١ ذهبية. وعاد الناس إلى بلادهم بكتوس الذهب والفضة وعدنا نحن على العادة - بكتوس الدموع ، والخراطيم الدايبة تعمل أكثر من ذلك وخيبة الأمل راكبة جمل وأرجوك ألا تسألنى عن اسم الجمل فقد قلنا فى الماضى أقل من ذلك فقالوا: اطلعوا من البلد. وأنا لا أريد أن أطلع من البلد! .

(١٧)

أخلاق الفقر .. وأخلاق الغنى*

فى بلادنا العزيزة - ونتيجة لتربية سيئة هزيلة فقيرة فى بلد فقير - عندما ينجح مواطن وينشئ مشروعات ناجحة وتحقق أرباحا كبيرة، فإن الهاجس الطبيعى الذى يتردد فى خواطر معظم الناس هو: حرامى! والعاطفة التلقائية فى قلوب معظم الناس حياله هى الكراهية والحسد وتمنى زوال النعمة، لأننا فى الحقيقة شعب فقير جداً، والفقير هنا ليس فقر المال فحسب، بل هو فقر الروح والفكر، وإذا كان تعدادنا فيما يقولون بين ٤٢ و ٤٥ مليوناً فإن من المؤكد أن ما بين ألفين وثلاثة فحسب فى هذا العدد الضخم يمكن أن يقال إنهم أغنياء، وحوالى مليونين أو ثلاثة يتمتعون برخاء أو يسار، والباقى - صدقنى - تعساء على درجات متفاوتة من التعماسة، والذى يخفف من بشاعة هذه التعماسة أننا اعتدناها وعرفنا كيف نعيش معها وبها. أو لجأنا إلى أساليب خسيصة للتخفيف من وقعها، أساليب تتراوح بين مد اليد والاختلاس.

والكثيرون جدا منا يفرجون عن أنفسهم بتعذيب الناس. فى أحد الأيام كنت فى مكتب موظف كبير فى المجمع الحكومى فى الجزيرة. وهو مبنى رهيب حاشد دائما بالخلق يذكرنى ببرج بابل - وكنت أنتظر إمضاء قرار بتجديد رخصة بناء. وكان مع الموظف الكبير صديق له مدير أيضا ومكتبه يجاور مكتب صاحبنا، ويأتى فراشه ويقول له:

- الحاج عبد الصالحين ينتظرك فى المكتب.

فقال الرجل بسرعة وبطريقة تلقائية: قل له إننى خرجت لعذر عائلى طارئ، ولن أعود إلى مكتبى اليوم.

* نشرت هذه المقالة فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٥ م.

ويقول له صديقه: ليه كده يا فلان؟ هذا الرجل أتاك إلى الآن نحو عشر مرات، والشيك الخاص به موقع من مدة، فأعطه إياه واخلص.

- يعنى إيه؟ عاوزنى أقوم أعطى سى عبد الصالحين هذا شيكا بمبلغ ٣٣ الف جنيه هكذا بكل بساطة؟

- أليس هذا حقه؟ هذا الرجل من أكثر المقاولين الذين تتعاملون معهم بأمانة، وقد أنجز المبنى المتعاقد عليه وتسلمتموه من أربعة شهور، والشيك فى درجك من ثلاثة أسابيع، وهذه ثلاثة مرة يأتى وتتهرب منه.

- يعنى احنا نقبض مالليم ونشقى فى سبيلها، وهؤلاء يقبضون الألوف هكذا؟

قلت له: أليس هذا حقه؟

- لن نقل شيئاً، ولكن ماذا يحدث له لو تأخر كمان.. عشرة أيام؟ إنه رجل غنى يملك العماثر والأموال، وماذا تكون ثلاثة وثلاثون ألفا إلى جانب ما عنده؟.. رايح جاى كما لو كان سيموت من الجوع!

- قم يا أخى وأعط الرجل ماله. إنه قد يكون غنيا فعلا ولكنه كما فهمت من صديقنا رجل أمين يعاملكم بالصدق، ولا بد أن عليه التزامات ومستوليات..

- يأتى غدا.. اليوم ليس عندى مزاج أعطيه..

- سألتك بمقام المصطفى الذى زرت قبره عندما حججت فى العام الماضى ألا قمت الآن وأعطيت الرجل شيكه.. لماذا تعذبون الناس؟

وخجل فى النهاية وقام وأعطى الرجل الشيك الخاص به. وصديقى الذى كنت فى مكتبه قاللى: لا بد أن الحاج عبد الصالحين سيعطيه الآن مبلغا لا بأس به، ولكن تصور أن تلذذه بتعذيب الناس يفوق سروره بأخذ البقشيش.

- هذا معقول جدا فى بلدنا هذا، هذا الرجل معذب ولهذا فهو يعذب الآخرين. من المؤكد أن حياته مع زوجته وأولاده جحيم.

- إنه رجل مسكين كل مرتبه ١٦٢ جنيها وعنده ثلاثة أولاد فى الجامعة واثنان فى الثانوى.

- إننى اراه دائما فى مكتبك، ومن المؤكد أنه لا يؤدى من العمل ما يعادل راتبه، ثم إنه كما فهمت منك يتلقى (هدايا) أو بقشيشات بين الحين والحين، نحن شعب مسكين يا صديقى، شعب لا يعرف طريق النجاح أو معنى العمل الناجح، ولو فتحت قلوب معظم الناس عندنا لوجدت أن نصف ما فيها أطماع والنصف الآخر أحقاد. وهذه كلها جوانب من تفكير الفقر. أو الفكر الذى ينشأ فى ظلال الفقر..



ومن أسف أننا لا نعرف غيز هذا الطراز من التفكير، ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكون النجاح فى مجتمعنا قليلا، وأقصد بذلك النجاح الحقيقى: النجاح الذى لا يناع فيه فى المهنة، مثل نجاح طه حسين، والعقاد، وتوفيق الحكيم، وأحمد شوقى فى الأدب، ومحمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفريد الأطرش، وعبد الحليم حافظ فى الموسيقى، وطلعت حرب، وأمينة يحيى، وعبد المنعم القيسونى، و عثمان أحمد عثمان، وسيد اللوزى فى الاقتصاد والصناعة، والبدرأوى عاشور، والنشأوى، ومحمد هاشم فى الزراعة، والأخوين على ومصطفى أمين، وأيضا محمد حسنين هيكل ومحمود أبو الفتح وأنيس منصور فى الصحافة، وبقية هذا الطراز الرفيع من الرجال، وهؤلاء جميعا محسودون مرزأون يتربص بهم الكثيرون الدوائر كأنهم انتزعوا نجاحهم من عيون الآخرين، وعندما كان النظام الناصرى يصادر أموال الناجحين والأغنياء كنت ترى الفرحة والتشفى فى عيون التعماء، مع أن الناصريين لم يعطوا أحد شيئا مما نهبوا. كله انصب

فى جيبوبهم، وما جمعته مصر من ثروة وما بنته من اقتصاد من أوائل هذا القرن إلى ١٩٥٢م خربه النظام الناصرى وجلس على تله، وهلل التعمساء لذلك، وهنا بعضهم بعضا مع أنهم ازدادوا بذلك فقرا، ومن المعروف أن الحقد ثروة الحاقدين..

ولنا صديق طبيب رمدى شاب شق طريقه بذكاء وعلم ونشاط وأنشا عيادة رمدية على آخر طراز، وهى دون شك فخر لمصر، وأسمع صديقاً يقول:

- لا تخدعك هذه المظاهر، كله تهويش.

- وما الذى لا يعجبك فى عيادة هذا الطبيب؟

- تياترو.. كله تياترو: سكرتارية ودفاتر وبنات فى الاستقبال وعلى التليفون ومواعيد ثلاثة اشهر مقدماً، وأدوات رمدية كلها منظر وفى النهاية فواتير بمئات!

- نسيت الأهم: العلاج الصحيح والشفاء. لماذا لا تذكر ثمرة جهد الرجل كله؟ ثم ليس هذا هو النظام المتبع فى عيادات الأطباء فى البلاد المتقدمة؟ هل النظام عيب؟ وهل من الخطأ أن يكون لعيادة الطبيب أرشيف منظم ولكل مريض ملفه؟ وماذا تعيب على السكرتارية المنظمة؟

- أنت لم تر عيادة الدكتور فلان فى ميدان الأزهار؟ إن الناس هناك إلى الشارع والرجل لا يغادر عيادته إلا إذا رأى آخر مريض. أحيانا لا ينصرف إلا مع الفجر.. لا تياترو ولا مظاهر.

- طبعا، وهناك أيضا التلوث، تذهب إلى هناك بمرض وتخرج باثنين، وكل شىء بالبركة. الشفاء بالبركة والتلوث أيضا بالبركة، والله إنك لا تنفس على الدكتور فلان إلا النجاح، والنجاح عندنا جريمة تستحق العقاب.

وصديق آخر لنا دخل ميدان النشر دخولاً قوياً باهراً ، وفتح ذراعيه للمؤلفين، ونشر ذلك في إعلانات كلفته ألوفاً، وتوافد عليه الناس وهلت تباشير توفيقه، وهنا تتحرك عقارب الغيرة وأخلاق الفقر، ويكتب ناس في الصحف يحملون عليه، وواحد منهم بلغ به الحقد أن قال إن نشر مثل هذه الإعلانات سفالة!

معظم الناس عندنا يحبون الفشل والخيبة للآخرين، وعندما يخيب الإنسان يتفضلون عليه بالعطف والأسى: ده غلبان يا شيخ ربنا يعينه، دخله قليل وأولاده كثيرون وعيا وديون. رجل طيب ولكن بخته قليل!

وما هكذا أخلاق النجاح. وهناك بلاد كثيرة لا يؤمن أهلها بالخيبة، ولكنهم يؤمنون بالنجاح ويرونه فرضاً واجباً على كل إنسان، ليس معنى هذا أن الحقد والحسد غير موجودين هناك لأن الحسد والحقد جزء من الطبيعة الإنسانية، وهما موجودان في كل مكان، ولكنهما ليسا وباء شاملاً كما هو الحال عندنا، وأهل البلاد الناجحة يفكرون في الغالب تفكير نجاح، ولا يسألون الله زوال نعم الآخرين حتى يتساوا معهم في الخيبة، أكبر مثل لذلك الولايات المتحدة، حيث تجدهم يعتبرون الناجح في ميدان الاقتصاد مثلاً بطلا قومياً، وأكبر مثال لذلك في هذا العام المستر بي لا كوكا رئيس مجلس إدارة شركة كرايزلر. وهذا الرجل الذي ينحدر من أسرة من المهاجرين الإيطاليين اسمه الحقيقي ليدو أنطوني لا كوكا، وهو في الستين من عمره، وشركة كوايزلر التي يرأس مجلس إدارتها عمود من أعمدة الاقتصاد والصناعة في أمريكا، ونحن نظن أنها شركة سيارات فحسب ولكن يكفى أن تعلم أن صناعة السيارات لا تمثل أكبر من عشر رأس مال الشركة، لأن كرايزلر تصنع محركات الطائرات والسفن والهليكوبتر وتصنع أجزاء رئيسية من مركبات الفضاء والأقمار الصناعية والقاطرات وأشياء كثيرة جداً، ونحن الذين نهنى أنفسنا إذا صنعنا علبة فول أو علبة فاصوليا لن نفهم قط معنى الصناعات الكبرى، ويكفى أن تعلم أن رأس مال

شركة مثل كرايزلر أو جنرال موتورز أو مارك أند هوايتهنى التى تصنع طائرات البيونج يزيد رأس مالها على مائة بلد مثل مصر، هنا تستطيع أن تتصور قيمة رجل مثل لى لا كوكا الذى تسلم إدارة الكرايزلر من سنوات قليلة، وهى على وشك الإفلاس، وعرف كيف يصلح الإدارة وابتكر أفكارا أقامت الشركة على قدميها ووضعتها فى عداد الشركات الرابحة، وفيما يتعلق بقسم السيارات عرف لا كوكا كيف يجعل مهندسى الشركة يضعون فى السوق سيارة بديعة من طراز سيدان تباع مليونين فى عام واحد، والمسألة هنا ليست مسألة عبقرية أو عصا سحرية وإنما مسألة إدارة سليمة ومعرفة بأساليب جعل كل عامل فى الشركة من كبار المهندسين والمديرين والفنيين والمصممين والمتخصصين يقدمون أحسن ما عندهم، وكيف تستفيد الشركة من كل جهود هؤلاء وأفكارهم ومكافآتهم المكافأة المناسبة. وهذا الرجل لا كوكا يرأس نحو ١٥٠ ألف موظف وفنى، ومراكز توكيلات سيارات كرايزلر فى الولايات المتحدة يبلغ عددها ٣٩٨٤ توكيلا كل أصحابها يحبون هذا الرجل ويعجبون به، وعمال الشركة مقتنون به، وقد قالت سيدة تسمى سارة هينز تعمل فى أحد خطوط تجميع السيارات فى الشركة فى ديترويت: إننى مدينة بكل شىء للاكوكا، كانوا على وشك أن يفصلونى فى سنة ١٩٨٠م والآن، أتقاضى ثلاثة آلاف دولار فى الشهر بالإضافة إلى مكافأة مرتب ثلاثة شهور فى السنة وثلاثة أسابيع إجازة مدفوعة والعلاج المجانى الكامل فى مستشفيات الشركة. وقد كنت أتحدث فى هذا مع رئيس مجلس إدارة إحدى مؤسسات القطاع العام عندنا ونحن فى الطائرة إلى زيوريخ فقال لى: وكم يبلغ راتب هذا الرجل؟ قلت وأنا أتأمل غلاف كتاب تاريخ حياة لا كوكا (نشر دار بانتمام والثمان ٢٥ دولاراً) فوق المليون دولار قطعاً، فضحك وقال: يستكثرون علينا خمسة آلاف جنيه فى الشهر، ويقول رفيق لنا فى الرحلة وعضو فى مجلس إدارة البنك الأهلى: ولكنك تنسى أن شركة كرايزلر تحقق الآن أرباحاً تزيد على الألفى

مليون في السنة وشركتكم يا عزيزي تخسر بمعدل مليون جنيه في السنة، وديونكم للبنوك قاربت العشرين مليوناً، والترجمة الشخصية للا كوكا باعت مليوني نسخة من الطبعة ذات الغلاف القوي، وهم لم يصدروا الطبعة الشعبية (الببير باك) بعد ودار بانتام باعت ٢٠٠٠٠٠ نسخة في اليابان، لأن أهل اليابان شعب ناجح يحب أن يقرأ قصص النجاح، وبدلاً من أن يحقدوا على لا كوكا ويحسدوه ويسألوا الله أن يخرب بيته يقرأون سيرة حياته بقلمه ليعرفوا كيف نجح. في تلك البلاد تعتبر قصص النجاح أناشيد شعبية، وهي عندنا لعنة على صاحبها. هناك نجد الفكر الناجح وعندنا الفكر الخيبان.

وقد حكيت في كلامي عن أوليمبياد لوس أنجيليس، قصة نجاح مدير الدورة وهو بيتر أوبروت، وأذكركم. بالقصة فأقول: إنهم عندما اختاروا هذا الرجل مديراً لتلك الدورة كانت خطوته الأولى أن قال: إنني لا أستطيع أن أشحذ تمويل الدورة في صورة تبرعات:

من هنا خمسة آلاف ومن هناك ثلاثة آلاف أو عشرة، ثم أطلب الباقي إحساناً من حكومة الولايات المتحدة. والذي سأفعله هو أن آخذ تمويل الدورة كله من ثلاثين شركة بمعدل أربعة ملايين لكل منها، فيجتمع لي منذ البداية ١٢٠ مليون دولار وهو رأس المال المطلوب. وهذه الشركات الثلاثون تحتكر الإعلانات في كل منشآت الدورة. وكانت أول شركة استجابت له شركة أفلام يابانية لها فرع كبير في أمريكا، ثم تعاقبت الشركة حتى اكتملت للرجل المائة والعشرون مليوناً وبدأ يعمل. وكل شيء جعله الرجل مصدر تمويل: الإذاعات والتلفزيون وسيارات النقل حتى البناني والوظائف. وكثير من الشركات والهيئات قامت ببناء ملاعب أو حليات تدريب أو مراكز إيواء لتستعملها الدورة ثم تكون ملكاً للشركات والهيئات المنشئة فيما بعد، والجامعات والهيئات قدمت الإداريين والمدربين وتحملت نفقاتهم ورواتبهم، وجماعات الرياضيين الذين رشحتهم

الجامعات والهيئات لحضور الدورة وشهود التدريبات عن قرب دفعت أموالاً في مقابل ذلك.

وكان الرجل حريصاً جداً في اختيار الموظفين، كما يقول: أريد كفاءات لا مجرد موظفين، وأنا على استعداد لأن أعطي عشرة آلاف دولار في الشهر لأي موظف فني يؤدي لي عمل عشرة، وهذا أفضل عندي من أن استخدم عشرة يتقاضى كل منهم ألفاً، والكمبيوتر استعمل على أوسع نطاق. وكانت هناك موظفات في أقسام البرمجة تعمل الواحدة منهن على ثلاثة أجهزة في نفس الوقت، ولم يسمح أوبروت للواحدة منهن بأن تعمل أكثر من ساعتين متواليتين ثم تستريح ساعة. وعدد ساعات العمل اليومي لكل منهن لم يزد قط على ست ساعات في اليوم. ولكن الواحدة منهن تؤدي عمل نصف موظفي مبنى مجمع ميدان التحرير وللمرة الأولى في تاريخ الأوليمبيادة حققت الدولة أرباحاً وصلت إلى ١٥٠ مليوناً من الدولارات، نصفها من حق اللجنة الأولمبية الأمريكية، فقل لي والله كم تعطى لهذا الرجل أتعاباً؟ ضح إلى جانب ذلك صورة وزير اقتصاد مصرى سابق أبغضه كل المصريين بغضاً قومياً شاملاً، وكان يوم خروجه من وزارة الاقتصاد عيداً احتفل به الكثيرون، لأنه فيما يقال أهلك الحرث، وكان على وشك أن يبدأ في إهلاك النسل عندما كتب الله لنا النجاة منه. والكلام عن هذا الرجل كثير والتحقيقات كثيرة وسنتظر أعواماً حتى نعرف الحقائق، لأن شعبنا من عشاق (بكرة) والحكمة السائدة هي: لا تعمل اليوم ما تستطيع تأجيله إلى الغد. هذا الرجل أيام وجوده في الوزارة ذهب إلى الولايات المتحدة يجتمع بالمغتربين المصريين ويقنعهم بالاشتراك في تمويل المشروعات المصرية، وكان مما قاله لهم ليؤكد لهم ثبات الاقتصاد المصرى في عصره السعيد إن الإنتاج الصناعى الزراعى المصرى يصل إلى سبعة آلاف مليون دولار! وسيادته نسى أنه يتحدث في أمريكا مع أمريكيين يعرفون

أن قيمة إجمالي الإنتاج القومي الأمريكي وهو أكبر إنتاج فى الدنيا يبلغ ثلاثة آلاف وأربعمائة مليون دولار تقريبا.

وتليها اليابان فألمانيا الغربية. وبحسب تقدير سيادته يكون إنتاجنا القومى معادلا لإنتاج الولايات المتحدة واليابان معا. وهذا الوزير الذى كان قبلا أستاذا جامعيا تعود أن يتحدث إلى فقراء لا يفهمون لغة الأرقام، والفرق عندهم بين ثلاثة آلاف مليون وسبعة آلاف مليون قليل، أنهم لا يعرفون أو يتصورون هذا أو ذلك.

ولأننا فقراء فإن تفكيرنا فقير. وهذا التفكير يستكثر الخير على أى إنسان، بل نحن لا نعرف المعنى الحقيقى للثروة، ومن العسير جدا علينا أن نفهم معنى الثروة التى تملكها شركة فليك الألمانية، وهى التى تنتج إلى جانب أشياء كثيرة جدًا سيارات مرسيدس بنز أو ثروة بيت أنيبلى الذين يملكون شركة فيات، والمدير الحالى لشركة فيات يصنع الأعاجيب ويحقق البلايين أرباحًا، والناس هناك لا يحسدونه أو يتمنون خراب بيته، بل يقرأون أخباره ليزدادوا طموحا.

ومن ثماني سنوات كانت شركة أوليفيتى لآلات الكاتبة والحاسبة وأدوات المكاتب تعاني أزمة مالية حادة فالمبيعات نزلت إلى الربع قيمة الأسهم سقطت فى السوق إلى الثلث والديون بلغت سبعة ملايين دولار.

ثم عين رئيس لمجلس إدارتها مدير شاب موهوب هو كارلو دى بيندينى وبدأ التحول والشركة التى كانت فى طريق التصفية بدأت تصعد من جديد وكارلو دى بيندينى وضع فى السوق طرازات من الكمبيوتر الشخصى قاربت فى الجودة ما تسمعه الآى - بى - إم . تباع بثلاثى الثمن، وتحسنت أساليب توزيع الشركة وفجأة بلغت المبيعات ألفى بليون وغزت أوليفيتى أسواق فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة، وفى كل الأوساط الصناعية فى الدنيا أصبح كارلودى بنديتى رجل العام. وتقدم بجرأة

واشترى مصانع بويتون بيروجينا للعجائن والشيكولاته والأغذية المصنعة، وكانت الشركة تقترب من الإفلاس وعرضت للبيع وتقدمت لشرائها مع مصانعها شركة البان وأغذية فرنسية مشهورة هي شركة جرفية دانونى المعروفة بالجبن واللبن الزبادى المعروف فى كل أوربا، وتقدم كارلو دى بينديتى بجرأة رجل الأعمال الناجح ودفع ثلاثة ملايين ونصف زيادة على ماعرضه الفرنسيون، وأصبحت مصانع بويتونى وبيروجينا ملك شركة أوليفتى، وبدأ مركزها فى السوق يتحسن وأخذت تصعد فى السوق من جديد، وقد أحسنا نحن بهذا الصعود، فمئذ حين يعلنون عن تلك العجائن فى مصر وهذه فى الغالب شركة فرعية لأن الشركات الكبرى تنتشر فى العالم ببيع حق التصنيع مع الإشراف الفنى، وهذه كلها أخلاق نجاح وتصرفات نجاح، وهذه البلاد تؤمن بالعمل والنجاح ولا يقنع أهلها بمجرد الحسد وتمنى خراب بيوت الناس.



وسواء كنت فى أمريكا أو إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو اليابان فأنت تحس أنك فى بلاد تؤمن بالنجاح والعمل وأخلاق أهلها أخلاق نجاح وعمل. وأبسط مظاهر العمل المثمر والنجاح هو النظافة والجمال والأناقة فالشوارع جميلة نظيفة والمباني سامقة غنية والناس لباسهم يدل على سعة حال. وأمريكا بلد مشهور بأصحاب الملايين وأنت تحس ذلك، فأنت ترى على طول طريقك مباني ومنشآت أنشأها أصحاب ملايين وأهدوها لبلادهم، فهذا المستشفى أنشأه المليونير فلان وهذا العمل الطبى فى جامعة كذا هدية من فلان، وقد عملت مراراً عديدة أستاذاً زائراً فى جامعات أوربية وأمريكية وكنت أتعجب من كثرة ما يهديه الأغنياء للأمة، وأذكر أننى وقتت مرة فى حديقة فى جامعة بيل بمدينة نيوهيفن وكل المباني المحيطة بالحديقة كانت هدايا من أصحاب ملايين معامل ومستشفيات وأقسام علمية ودور ضيافة للطلاب ومكتبات. وهنا فى الجامعة الأمريكية فى

القاهرة مبنيان هدايا من أغنياء أمريكيين، ولا أذكر أن أحداً من أغنيائنا أهدى غرفة أو كشكا. لجامعة القاهرة أو عين شمس أو الإسكندرية أو أى جامعة لأن أغنيائنا فى الحقيقة فقراء، وأنا لا أصدق أن عندنا أصحاب ملايين. يقولون لك إن فى مصر الآن لا أدرى كم ألف صاحب ملايين وأنا أقول: كلام فارغ، وهؤلاء إن وجدوا فهم أصحاب ملايين فقراء إنهم كرماء على أنفسهم وأولادهم بخلاء على الوطن والناس فهم أغنياء على أنفسهم فقراء بالنسبة لنا وهم من هنا أغنياء فقراء وعليهم يصدق قول المتنبى:

جود الكرم من الأيدى وجودهم . من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ولقد مررت بهم وهم فى مجالسهم على الشاطئ ورأيت منشآتهم الفقيرة على شاطئ العجمى ، كلها عمائر أنشأوها وسكنوا فيها مع الناس، وكل منهم يزعم أنه بنى لنفسه ولكل واحد من أولاده فيلا فى عمارته فهذه أشياء لكم وخيركم عائد عليكم وحدكم، فلماذا تطالبون بأن نعاملكم على أنكم ناس ممتازون عن غيركم، وفى نفسى إحساس بأننا لو حاسبناكم على قاعدة من أين لك هذا لما بقى لكم مما تملكون شىء، بل لعل الدولة لو حاسبتكم بحزم وطالبتكم بما هربتموه من الضرائب لأخذت كل ما معكم بقى عليكم ما تؤدونه سجنًا.



وقد كان الأغنياء فى الماضى يبنون لأنفسهم فيلات وقصورا ذات حدائق جميلة، وإذا كانوا لا يعطون الأمة شيئًا فقد كانوا على الأقل يضيفون إلى جمال البلد، وقصورهم فى أحياء الزمالك وجاردن سیتی والمعادى ومصر الجديدة كانت زينة وفرجة أما أغنياء اليوم فهم أغنياء (عِرة ب) تجد الواحد منهم يبني عمارة من ثلاثين طابقًا ثم يبني لنفسه فيلا فوقها، أى أنه فى النهاية يسكن على السطوح، والسطوح أيا كان شكله وحجمه سطوح، والسكان عليه لا يفترق عن الغلبان الذى كان يكتري غرفة على

السطح، وأخلاقهم كذلك أخلاق سطوحية فهم لا يتعففون عن قرش تعريفة، وواحد منهم أقام وليمة سمك لأصحابه فى أحد مطاعم أبى قير، وفى آخر الوليمة أمر خدمة بأن يجمعوا بقايا الأكل ويأخذوه إلى البيت تحت إشراف ست هانم الكبيرة وخادمتها ست أم فرج، وقد شهدت عملية الجمع فى أكياس البلاستيك وست هانم الكبيرة ربطت دماغها بمنديل ومضت تجمع بيدها البقايا حتى رءوس السمك، وكان من الصعب أن تفرق بين ست أم فرج الشغالة وست هانم الكبيرة التى حملت فى يدها برطامانات بقايا المايونيز والطورشى وجلست فى سيارة ب. م. وتسوقها دولت هانم وهى أيضاً مليونيرة فقري.

ولكن قانون من أين لك هذا لا يطبق إلا على الذين لا يملكون شيئاً، (هذا) بالنسبة للفقراء غير موجود، ومن ثم فلا حساب عليه. ومن أسف أن الحال هنا كما هو عند كل البلاد الغلبنة وهو أن الإدارة ملك للأغنياء أو تخاف منهم، ونحن قوم لا نعرف الطموح، ولكننا نعرف الطمع، والطموح يبني الشعوب والطمع يخربها، ومادامت القاعدة كما تكونوا يول عليكم، فنحن فقراء غلبة وحكومتنا مثلنا، ولأنها مثلنا فليس لديها ما تنفقه على النظافة، وكل مدننا بما فيها بل على رأسها القاهرة والإسكندرية تسد النفس، أما ما يلى ذلك من طنطا وأسيوط وأنت نازل فكلها أشياء بين القرى والعزب والكفور والنجوع وقرافات المجاورين والغفير وسبحانه الحى الباقي.

الداء .. والدواء*

أبدأ هذا الفصل بوصف مشهد حزين يعطى القارئ فكرة عمار أريد أن أقول فيه، فقد ذهبت إلى محطة السكة الحديد فى القاهرة لأخذ قطار الثامنة صباحاً إلى الإسكندرية لحضور اجتماع علمى، وفاجأتنى لأول دخول فناء المحطة فوضى شاملة وناس يروحون ويجيئون، وأصوات تحتج، والطريق المؤدى إلى الرصيف الذى أجد فيه قطارى شبه مقفل بالناس، وعندما وصلت إلى مدخل الرصيف وجدت رجلاً يلبس جلابية وجاكته على رأسه طاقية شبكية يقول لى: استنى هنا على جنب يا حضرة، الأستاذ رياض جاى حالاً.

- ومن الأستاذ رياض؟

- مفتش التذاكر هنا..

ونظرت إلى هذا الإنسان الذى بدا لى وكأنه بهلوان، ولم أجد أى معنى للحديث معه. كان الوقت مبكراً ولا بأس من انتظار دقيقة أو اثنتين حتى يعود رياض أفندى ويأذن لى فى الدخول، وتشاغلت بتأمل الضجة التى سادت الفناء، وسألت أحد المشاركين فيها فقال فى غيظ:

- شىء يجنن يا حضرة: لنا نصف ساعة هنا ونحن لا نعرف أين قطارنا الذى سنأخذه، هذا القطار لا يقف عند رصيف معروف، فمرة رصيف ٣ ومرة ٧، ومرة ٩ ولا أحد يدلنا، ونحن نريد أن نساغر لأعمالنا، وهذه اللوحة الاليكترونية التى كانت تدلنا على الرصيف والمواعيد معطلة من شهور. اشتغلت يا دويك شهراً، ثم ماتت.

وبعد دقائق أقبل شاب يلبس بنطلوناً وقميصاً. وشبشباً، وقال بصوت عال: قطر الزقازيق رصيف ٩.

* نشرت هذه المقالة فى ١٣ أبريل ١٩٨٦ م.

قالها مرة واحدة ثم استدار ومضى وتلاحق به الناس يسألونه عن الرصيف، وهو لا يكثر لهم، ثم قال: قلنا بأعلى الصوت تسعة، رصيف تسعة! هل أصابكم صمم؟ بلاوى.

والبلاوى - والمقصود بهم المواطنون مضوا يهرولون نحو رصيف تسعة. وسألت صاحبنا ذا الجلباب والجاكته والطاقيّة الشبيكة: وأين رصيف تسعة هذا، فأشار بيده إشارة تافهة وقال: هنا! تخرج من هذا الباب إلى رصيف ٦ وبعده بثلاثة أرصفة تجد تسعة.

وتأخر السيد رياض فدخلت وقلت لهذا الإنسان:

- أخشى أن يفوتنى القطار، ثم إن كل الناس مروا دون أن ينتظروا الأخ رياض.

ولم يحفل الرجل لدخولى ومضيت أبحث عن مكانى فى القطار، ولاحقنى إنسان عجيب طويل كالنخلة وقال: تذكرتك يا حضرة.

وحاول أن يأخذ حقيبتي من يدي فرفضت، ولم أعطه التذكرة، لأننى عرفت أنه صعلوك طفيلى يزعم أنه يريد معاونتى لأعطيه شيئاً، فتركنى لغيرى، ووصلت إلى عربتي ووجدت مكانى، وكالمادة كان المقعد مغطى بالتراب فأخرجت منديلاً ورقياً ومضيت أنظفه وأنظف المسند الجلدى خلفى والشباك، وأدركنى رجل يلبس ملابس سكة الحديد وقال:

- عنك يا سعادة البيه.. والله لقد نظفت العربى من الصباح الباكر حتى أصبحت عروسة.. أجلس.. ولا تخف!

وأريته المنديل الذى أصبح لون الهباب، وأخرجت منديلاً آخر لأكمل به التنظيف وجلست وهو واقف لا يريم فى انتظار البقشيش ونظرت إليه وقلت:

- ماذا تريد؟

كل سنة وأنت طيب يا سعادة البيه.

فلم أحفل له، وفتحت الحقيبة وأخرجت ترموس شاي أتيت به معي لأتقي شر يوفيه القطار، وصيبت كوباً ومضيت أنظر من النافذة التي غطتها طبقة من التراب وأصابها شرخ طويل.

وقال رجل يجلس أمامي: كالعادة! عشرون دقيقة تأخير، والقطار لم يتحرك بعد، وأخيراً، وبعد تأخير قرابة النصف ساعة تحرك القطار، ومضيت أسأل نفسي: ترى هل هذه المحطة بكل ما فيها من قطارات ملك للحكومة، أم هي ملك لرياض أفندي وصاحبنا ذى الجلباب والجاكته والطاقيه والآخِر ذى الشيشب والقميمص والبنطلون وقراش العربية الذى لا ينظفها والهلفوت الذى جرى ورائي ليفرض نفسه على؟ وهل ياترى وصل إخواننا قطارهم عند رصيف ٩ وركبوه؟ واللوحة الالكترونية ترى من الذى أخربها وجعلها جثة هامدة؟ ووجدت نفسي أقول: وماذا يدعشك فى هذا كله؟ هذه هي الحكومة. وإذا لم تكن هكذا فهي ليست حكومة، إذن أين سكة الحديد التى حدثنا عنها السيد وزير المواصلات فى حديثه البديع فى مجلس الشعب؟ أين الخدمة الممتازة؟ أين القطارات التى تبرق وتلمع وتقوم بالدقيقة وتصل بالثانية؟ أين الثلاثمائة مليون دولار التى أنفقت فى تحسين سكة الحديد خلال هذا العام؟ هناك شيء واحد مؤكد هنا: هو أن الملايين ضاعت؟ والمشكلة قطعاً ليست فى الوزيرة ولا هى فى القطارات أو المباني.. المشكلة فى رياض أفندي وشلة الموظفين العواطلية الذين رأيت نماذج منهم. هذا هو المستوى الذى وصلت إليه الخدمة العامة فى بلادك. وهذا القطار الذى وصل إلى بلادنا فخماً جميلاً أصبح من يوم أن استقر فى المحطة ملكاً للعواطلية وخرج فى الواقع عن ملك الدولة. ألم يقولوا لك إن هذا القطار بالذات مزود ببوفيه ممتاز يقدم لك خدمة على مستوى خدمة الطائرات؟ فهذه هى الخدمة: صعلوك بجلباب وفى منقاره سيجارة كنج سايز وعلى كفه المبطوة على مستوى رأسه ثلاثة صفوف من الشطائر، وخلفه غلام يحمل صينية قلى عليها زجاجات مرطبات والناس يشترون

الشطائر ويخرجونها من الورق ويلقون به على الأرض، وكذلك أغطية زجاجات المرطبات التي تتطاير، وأين أنت يا صاحب السعادة رئيس مجلس إدارة سكة الحديد؟ لا بد أنك بارحت مكتبك العظيم وسافرت مع وفد من المهندسين أمثالك لكى تشتري لوحات اليكترونية آخر طراز لتواربها التراب فى أفنية المحطات. ولتشتري قطارات آخر طراز لتسلمها إلى جيش الموظفين العاطلية.. ومع ذلك فأنا لا ألومك، فإن وظيفتك هى إنفاق ملايين الدولارات وتقديم التقارير إلى السيد الوزير، وسادة الوزير فى واد والموظفون فى واد، والموظفون المسافرون يجرون فى المحطات من رصيف واحد إلى رصيف تسعة لأنهم فى وادى التيه.



ذلك هو الداء: الجهاز الحكومى المستهلك. الموظف الحكومى الذى لم يعد موظفاً مسئولاً، وتحول شيئاً فشيئاً إلى مستحق فى وقف عام. قبل أيام كنا فى متجر قطاع عام لنشتري قميصاً فوجدنا البائعة المحجبة جالسة أمام صف من الفواتير وهى تسجل مبالغها على آلة حاسبة أمامها ونحن ننتظر، وانتظر وانتظر ثم أقول لها:

- من فضلك أريد القميص الذى.. وتقاطعنى وتقول:

- أما ترانى أعمل؟

- بل أراك، ولكن لى عشر دقائق هنا..

- عندما أفرغ من عملى، استرح قليلاً على أحد هذه الكراسى.

- لا يا سيدتى أنا لا أستريح إلا إذا قضيت لى حاجتى.. وهذه الفواتير

كان ينبغى أن تسجيلها بالأمس.. من فضلك انهض لتخدمى العملاء.

- اخدم العملاء؟ وهل أنا خادمك؟

وهذه القصة كتبها فى خطاب مسجل إلى رئيس مجلس إدارة الشركة دون جدوى، وفى مرة أخرى وقفنا معاً أمام الخزانة لنُدفع أثمان ما اشترينا، والسيدة الجالسة أمام الخزانة تصلح جهاز الترانزيستور وتفتحه، وتنفخ فى البطاريات ثم تقفله وتجرب، وسيد محترم يخرج من الصف ويتقدم نحوها ويأخذ الجهاز ويضرب به الأرض ويضع النقود أمامها، ويخرج من المحل وتنهض حضرتها وتجري وراءه وهى تولول، وعندما رأت ساعياً يفتح له باب السيارة عادت لأنها فهمت أنها أمام سيد محترم وأخذت تجمع حطام الترانزيستور. ومدير المحل - وهو موظف كبير طبعاً - يقبل غاضباً ويسألها:

- هذه جريمة كيف يحطم الجهاز ويمضى دون أن يحاسبه أحد؟ وينظر إلينا ويقول:

- وأنتم أيها السادة ألم يكن بينكم من يحمى الأنسة؟ وسيدة كانت أمامى تقول خيراً فعل، ولو أنه أخذ رأسها وضرب به الأرض لكان أحسن، أنا حرم اللواء فلان، ومقصوفة الرقبة هذه لا تجد من يؤدبها، وكلام السيدة الجليلة رد المدير والموظفة إلى العقل.. وصاحت البائعة:

- إنه لم يدفع ثمن ما اشترى.

- بل وضعه أمامك ولكن حضرتك كنت مشغولة بالراديو.

ومدير المحل يقول خلاص بقى يا منال عوضك على الله، والبنيت طفقت تبكى، والمدير حل محلها على الخزانة وفراش جمع حطام الراديو ووضع فى كيس بلاستيك أخذته وانصرفت وهى تبكى.



مشاهد وصور تضع يدك على الداء. وتضع يدك على الدواء، فإن الداء هو الجهاز الحكومى الذى توقف عن العمل تقريباً، والدواء هو بناء جهاز إدارى جديد، وهذا البناء لا يحتاج إلى قوانين، فإن القوانين عندنا تولد ميتة، أو هى تموت فى أيدي الموظفين الموتى، وهأنذا فى مكتب فى مجمع

إدارى ومعى رقم شيك أرسل إلى هنا باسمى، ومع الرقم التاريخ والمبلغ، والموظف يتحدث بالتليفون ثم يضع السماعة ويمسك بالورقة ويقول فى أدب بالغ:

- بكل سرور سنصرف لك المبلغ أنا اذكر أن الاستمارة مرت على ووقعتها، إنها الآن عند خميس أفندى فى الغرفة الثالثة على يمينك، والغرفة الثالثة على يمينى فيها أربعة مكاتب ليس عليها أحد لا خميس ولا جمعة ولا سبت ولا أحد، وأعود إلى الموظف فلا أجده. والفراش يقول ولا مؤاخذة جاءتة مكالمة تليفونية عاجلة، اصله ولا مؤاخذة مشارك فى بوتيك! وأين خميس أفندى؟ غير موجود. ولا يهملك تعال معى إلى حيث تجد خميس أفندى، أصل ولا مؤاخذة الجمعية جاء فيها بيض، وكلهم راحوا، إذا كنت تريد كرتونة بيض أنا آتيك بها، حتى لا تعود بيدك فاضية.

لقد تألنا ذات مرة ونحن نسمع خبيراً أمريكياً يتحدث فى اجتماع حضرناه وسمعناه يلخص مأساة متاعب مصر فيما سماه الأداء التعيس للموظف المصرى العام

the miserable performance of the Egyptian civil servant

وهى عبارة أليمة صكت أسمعنا وتلقيناها كأنها صفة نزلت على وجوهنا، ولم يستطع أحد منا الرد عليها بكلمة لأنها عبارة حق.



والمأساة لا تقتصر على الأداء التعيس للموظف المصرى بل تتعدى ذلك إلى جمود ذهنه وعجزه الكامل عن البحث عن حلول للمشاكل أو تحسينات للواقع، كأن الأمر لا يعنيه، فكل ما نفاجاً به من متاعب واضح للعيان قبل أن يقع، لقد تعجبنا جميعاً من أننا نعطى مواطناً راتباً قدره ستة جنيهاً ثم نطالبه بعمل أربع وعشرين ساعة، وهذا مقال لزميلى فى هذه المجلة الأستاذ أحمد مصطفى يقول فيه إن عسكري البوليس المصرى يتقاضى بعد

وفى الغرب حلوا هذه المشكلة بإنشاء البلديات من أيام الرومان، وهى هيئات تنتخب أى أنها تتكون من أسفل إلى أعلى، وأعضاء البلديات يخرجون من صفوف سكان المنطقة، فهم يعرفون مشاكل المدن والأحياء التى انتخبتهم، والبلديات أجهزتها التنفيذية التى تنفذ ما تقرره المجالس البلدية، والبلدية فى مدينة مثل لندن أو نيويورك مسئولة عن مرافق المدينة وكل شىء فيها إلا الأمن. فإن أجهزة الأمن أجهزة عامة تتبع وزارة الداخلية ولكن المجلس البلدى يشرف على أجهزة الأمن فى دائرة نفوذه والحكومة هناك تعطى رجال الأمن مرتباتهم، ولكن البلدية يمكن أن تقدر لهم رواتب أخرى لأن لها الحق فى أن تطالبهم بمطالب أمنية خاصة بمناطقهم بحسب ظروفها، ومن هنا فإن حكومات المدن هناك قوية وفعالة، أما عندنا فالحكومة المحلية فى مدينة مثل القاهرة مغلولة اليد. وكل مرفق فيها يتبع وزارة، فلا سلطان لها على المرافق، وهى لا تستطيع إلزام مواطن باتباع قوانين البناء ولا إيقاف شركة تخالف قواعد البناء، وإلى هذا يرجع تدهور مدينة مثل القاهرة، فإن مصالحها بيد وزراء كثيرين وسلطات متعددة وهى فى واقع الأمر ضائعة.

وهذه كلها أوضاع سيئة تعوق العمل وتشل الإصلاح، وكلها أوضاع نشأت فى عصر الاستبداد المطلق الذى تخلصنا منه ولم نعد نحتاج إلى شىء منها فلماذا نتمسك بها؟

أضف إلى ذلك أن عصر الاستبداد شل أيدى موظفى الدولة تماماً، حتى تعودوا الوقوف أمام المشاكل عاجزين، ومع مرور الزمن أصبحوا متبلدين وموظف الحكومة اليوم. وبعد قصصنا أجنته أصبح عاجزاً عن الحل والعقد، لأنه يحتاج إلى أوامر من فوق فى كل شىء و (فوق) اليوم لا يأمر بل يتركون الموظفين أحراراً، ولهذا فإن الموظف الحكومى تحت درجة الوزير أصبح رمزاً بلا حقيقة، وفى تلك الظروف اقتصر جهود الموظف على خدمة نفسه، أو المحافظة على منصبه - وكل الموظفين الذين تراهم

خدمة خمسة وعشرين عاماً راتباً قدره ثلاثون جنيهاً، وعندما تعلن حالة الطوارئ، ويطالب بعمل لمدة أربع وعشرين ساعة يحسب له عشرة قروش عن اليوم، فإن كان هذا غير صحيح فلماذا لم يكذبوه، وإن كان حقاً فهذا إعصار آخر يتكون، وأنا واثق أن أحداً من المسؤولين لا يضع هذه المشكلة فى حسابه ويمضى يبحث عن الحل، ليس فى الدنيا مشكلة تستعصى على الحل إذا هى أخذت موضع الجد وبحثت فى وقتها، ولكن أين من يفكر وأين من يبحث؟

من المؤكد أن الحكومة لا تحصل من الضرائب الواجبة التحصيل إلا الربع وأنها تستطيع أن تضاعف دخلها إذا هى كانت جادة فى التحصيل، ولكنها فيما نرى غير جادة، لأن المشكلة تبدأ من فوق. والناس اللى فوق (غير جادين فى موضوع الضرائب أو أى موضوع حكومى، وإلى جانبنا عمارة من سبعة وثلاثين دوراً وليس لها إلا جراح رمزى لا يتسع لعشر سيارات. وبقية سيارات العمارة سدت لنا كل الطرقات، وعندما فكرنا فى الشكوى وجدنا أن هذه سيارات ناس كبار: وكلاء وزارات ورؤساء وأعضاء مجالس وزراء وسفراء ولواءات فألئى من نشكو إلى أين المفر؟

معنى هذا أن الذين نطالبهم بالحلول هم اصل المشكلة. ورياسة الدولة عندما تنبهنا إلى المتاعب وتطالبنا بالعمل لابد أن تعذرنا إذا لم ننفذ، لأن موظفى الدولة من وكيل الوزارة إلى الفرائش هم لباب المشكلة. وقد عرفت بالتجربة ألا فائدة إطلاقاً فى الكلام مع مسئول من وكيل الوزارة فنانزلاً، وأنت مهما تفعل فلن تحل مشاكلك مع الحكومة إذا سرت فى الطريق السليم. كم مرة قلنا إن نظام مجالس الأحياء ليس السبيل الصحيح لحل مشاكل المدن. وإذا كانت المسألة هى حل مشاكل نوع معين من الموظفين بإيجاد وظائف لهم.. وظائف هم غرباء عنها؛ ولهذا فإنهم لن يحلوا لنا مشكلة مهما حسنت نياتهم واستقامت أخلاقهم، لأن إدارة المدن تحتاج إلى كفايات فنية وخبرات إدارية كثيرة لا تقيس إلا لمن تفرس بالعمل المدنى.

موظفين عند أنفسهم، ورياض أفندى مفتش سكة الحديد الذى ذكرته ترك بوابته ومضى لبعض شأنه، لأن هذه البوابة فى نظره ملكه، والأنسة التى تركتنا ننتظر لكى تعالج الترانزستور الخاص بها تصرفت على هذا النحو، لأنها لا تحس أنها فى خدمتنا، بل نحن فى خدمتها، ولو أننا مضيئا جميعا نشتكيها إلى مدير المحل لما اهتزت فى جسدها شعرة، لأن هذا المدير لا يستطيع أن يخضم من راتبها يوماً.



كل هذه أوضاع غير سليمة ولا بد من علاجها. والكثير منها أسباب تكون أعاصير يمكن أن تنفجر وتدمر، وموظفو الحكومة عاجزون عن علاجها، ولا تغرنك اجتماعات لجان الوكلاء أو المديرين فى أى وزارة، فهذه تشكيلات لا تحل ولا تربط غلا فى حدود ضيقة جداً، وقد كنا أعضاء فى العشرات منها ولا أذكر أننا فى ذات يوم استطعنا أن نحل إشكالا، والسيد وكيل الوزارة يتلقى محاضر اجتماعات اللجان وتوصياتها ويضعها فى الدرج، ودرجة مقبرة، أما السيد الوزير فلا يقيم لها وزنا، واذكر إننا اجتمعنا مرة فى وزارة التربية لدراسة مشكلة، وحضرت الاجتماعات مجاملة للسيد الوزير فقد كان صديقا، وهمس فى أذنى زميل. أليس من الظلم أن يصرفوا لنا عن الجلسة خمسة جنيها؟ قلت: لا، ليس هناك ظلم، فعملنا هنا لا يساوى ملاليم.



هذا هو الداء فأين الدواء؟

كما هى العادة: الدواء أماننا، ولكننا لا نراه أو لا نريد أن نراه، وقد سبق أن قلنا إن بلدنا هذا عجيب: إن الله قد وهب مفاتيح الثروة والرخاء، ولكنه لا يستعملها ويسير فى طريق الفقر والضيقة.

ورزقنا الله أخصب أرض زراعية فى الدنيا، ولكننا ندمرها ونستدين المال لنستصلح الصحراء. والتعليم الحديث فى بلادنا من نحو قرنين من

الزمان، ولكننا إلى يومنا هذا نقف - من حيث العلم - نقف في مستوى أمم استقلت وعرفت التعليم من ريع قرن لا يزيد. لأننا حولنا النظام التعليمي من وسيلة لفتح باب الأرزاق إلى طريق ضيق لتحويل الشبان إلى موظفين بشهادات عالية لا تعنى شيئاً من الناحية العلمية أو العملية ولكنها تحدد مستوى اجتماعياً، فالشباب الجامعي اليوم ليس شاباً متعلماً أو قادراً على كسب رزقه عن طريق حرفة يجيدها، ولكنه شاب جامعي أي مجرد متخرج في جامعة، وباستثناء شهادات الطب والهندسة فإن الشهادة الجامعية لا تعنى في الغالب إلا التعمسة وقلة الرزق. وهكذا.

وبالنسبة لمشاكلنا الحاضرة والمستقبلة لدينا العشرات من الرجال المتخصصين القادرين على إيجاد الحلول لمشاكلنا ودراستها في هدوء وتجرد وتنبهنا إلى مواضع الخطر واحتمالات تكون الأعاصير قبل هبوبها. وهؤلاء الرجال موجودون في المجالس القومية المتخصصة التي تضم من الخبرات ما هو كفيلاً بحل مشاكل العالم الثالث كله. وما من مشكلة من مشاكلنا إلا درستها المجالس القومية ونبّهت إلى مواضع الخطورة فيها، وقدمت لنا الحلول. ولقد عرف الدكتور عبد القادر حاتم كيف يجمع فيها خبرة أهل العلم والخبرة والتخصص في هذا البلد، وهؤلاء جميعاً يعملون مجاناً تقريباً وبكل إخلاص. يدرسون ويقدمون التقارير والتوصيات والحلول الناجمة. ولو بحثنا في ملفاتها لوجدنا فيها ما يعيننا على الخروج من مأزق الاقتصاد والتعليم والزراعة والتصنيع، بل أنا واثق من إننا سنجد فيها تنبيهاً إلى ما يمكن أن تؤدي إليه أحوال فرق الأمن المركزي أو ضعف مرتبات رجال البوليس أو متاعب الشباب الذي ينفق ربع حياته في التعليم ثم لا يجد بعد ذلك إلا الفقر والضيقة.

إن الدستور يجعل المجالس القومية المتخصصة جزءاً من نظام الحكم فلماذا نهملها؟

إذا لم تكن توصياتها تعجبنا إلى اليوم فلنغير رأينا الآن، ولنضع مشاكلنا أمامها ونطلب الدراسات والحلول. سنجد عند هذه المجالس التنبيهات إلى الأخطار والإشارات إلى الحلول.

هل كان اللواء أحمد رشدى* وحده المسئول عن الانفجار الذى حدث؟ أظن أن هذا غير معقول، فإن الرجل كما عرفناه لا يمكن أن يكون المسئول الوحيد عن الكارثة، فقد نبه إلى الخطر مرة بعد أخرى، ولكننا فى العادة لا نبدأ علاج أى مشكلة إلا بعد وقوع الكارثة. وأنا أذكر أن رجلاً آخر يحتل مركزاً من مراكز الصدارة فى إدارتنا قال يوماً: ماذا يريدون؟ ألسنا نعطيهم ستة جنيهاً فى الشهر أى أربعة دولارات؟ ولكن الآفة عندما أذفت كان المسئول الوحيد عنها هو أحمد رشدى الذى لم يقل هذا الكلام، وهو بالذات الذى نبه إلى أخطار الجنيهاً الستة. لنأخذ درساً مما حدث. لندرس مواضع تجمع الأعاصير ونبحث لها عن الحلول فى هدوء، وليدرسها الرجال العقلاء العارفون الذين أشرنا إليهم، إن مفاتيح الخير فى أيدينا فلنستعملها مرة، مرة لوجه الله!

* كان يعمل وزيراً للداخلية أثناء كتابة هذه المقالة .